عائشة الخياطة

صلاح والى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(إبداع الشباب)

عائشة الخياطة

صلاح والى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

عائشة الخياطة

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **الجالسة أو ماجا فى الثوب**

التقنية : **ألوان زيتية على توال**

فرانشيسكو دى جويا (١٧٤٦ - ١٨٢٨)

مصور أسبانى - اشتغل معظم حياته فى مدريد بصناعة السجاد، ثم عين مديراً لأكاديمية التصوير، ثم أصبح مصور القصر ١٧٩٨ . ويعد من أشهر المصورين التى أنجبتهم أسبانيا. وقد ظل مخلصاً لعالم الركوكو الذى يصور الحياة ومغزاها كلعبة. وتحول بعد ذلك إلى تصوير القسوة والشر والخبث فى الإنسان. وصور الحروب وأهوالها فى صور دراماتيكية. وقد اشتغل فى مرحلته الأخيرة بفن الليتوجرافيا فخلف حوالى سبعمائة وخمسين رسماً يدوياً يوجد منها حوالى خمسمائة بمتحف برادو بمدريد.

واللوحة المنشورة على الغلاف بعنوان (ماجا فى الثوب) رسمت ١٨٠٠ - ١٨٠٢ وقد استوحى فكرتها من فينوس بعد أن بث فيها يقظة روحية، وهى السمة التى يتميز بها فنه.

محمود الهندى

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــداء

الى الواحد المطروح من نفسه
الى نقر درابكها وغنائها يتردد دائما فى جنباتها
الى السكاكرة سدة الكون وسداته .

صـــلاح والى

(١)

كانت تنام في أى مكان ، حتى وهى سائرة تتابع أحلامها التى تعيش فيها دائما والتي تعينها علي تحمل الواقع ٠

وكانت تأخذ من الشتائم واللوم الشىء الكثير ،وكانت تظل شاخصة للبعيد ، لكأنما يقينا كانت تنظر الى شخص ما ٠٠٠

وكثيرا ما كانت تبتسم وهى نائمة أو تبكى أو تصرخ أو تتلفت من ناحية الى ناحية ٠٠ وفى كثير من الأحيان كانت تقف فجأة وهى سائرة وتتلفت حواليها ، أو تنظر خلفها وترفع رأسها فى اتجاه السماء لكأنما أحد يناديها ٠

وفى احدى المرات أصر الرمح علي أن تحشي له محشى الكرنب، فجهزت الخلطة مع الأرز وسلقت الكرنب / خمس كرنبات / ووضعت الخلطة فى الطشت وأمامها حلل كثيرة وجلست في وسط الدار تحشى المحشى ٠

ربما مر وقت كبير ، ربما مر نصف نهـار ، ربمـا مر يوم بكامله ، ولكن عجب الرمح وصراخه كان قد جسد الوقت المهدور ٠

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠٠ ياست حبيبة ٠

وكانت هي شاخصة الى البعيد ويديهـا فى الطشت والأرز ينام فى الخلطة ٠

ـ عـدد رمـال الأرض وجريد النخل وبلح النخل ومـاء الترعة و ٠٠٠٠

زعق ٠٠ اللهم طولك يا روح ٠٠ المحشى يا حبيبة خلى النهار يعـــدى ٠

ـ وعدد ملائكته ورسله وحصى الأرض و ٠٠٠

ظلت كما هى فى الأدعية مستمرة ، فيئس الرمح منها ودخل الزريبة ليســـقى البهائم ويرى أحوال الخراف ، فنظف المداود ورش الفول على التبن وخلطه بالكسب ، وخرج مرهقا فســـمعها مازالت فى أدعيتها وتسابيحها فاطلق صراخة فى الشارع الذى اخترم حوائط الدار ونفذ منها الى الحارات والبيوت الملاصقة ٠

ـ يا حبيبة ٠٠ حرام عليك ٠٠ يا أم عائشة وحدى الله ، ربنا يهديك أنا جعان ربنا لا يرضى عن جوعى ٠٠ يا

ولكنها كانت مستمرة ولا تسمعه

ـ اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد نجوم السماء وموج العصاة وعدد نفس كل حى يالله ، وعدد الأمواج والأسماك وعدد الكارهين والمحبين وعدد مياه الدمع وصوت الملح وعدد نسيم البر وعواصف البحر ورمل الأرض وشعر النسله وعدد الخطايا والرزايا والبلاء حواملا كواملا ٠

ـ حرام يا ناس ·· حرام يا حبيبة

ـ وكلل الضمائر وعماء البصائر ورمد المعاصى

ـ أنا غلطان يا ناس أنا غلطان يا حبيبة ··· بالراحة ومن غير زعيق ·· أنا جعان والله لن يرضى عن جوعى ومهلكتى

لم يجد الرمح أى استجابة فزعق مرة أخرى ·

ـ أنا بن كلب ياست حبيبة ·· الأكل يا أم عائشـــة ·· ارحمينى اعتقينى لوجه الله ·

ـ وعدد صراخ العميان ووقوع المبصرين ، وعدد بكاء الفرحين وفرح المذبوح ·

ـ ارحمونى من بنت الكلب ياناس ·

كان صراخ الرمح قد ضرب السكاكرة فى فراغها بسهم فى كبد الصمت فارتجت الدور فسمعت الســـكاكرة صراخة فارتاعت وأمسكت بأصابعها جدران البيوت فاخترقت الأصابع القوية البيوت على النساء وتفدت من الجهة الأخرى فقلن :

ـ الرمح اتهبل أو يمكن مسه شيطان أو جن أو بنى آدم ضحك عليه ·

تجمع الخلق ودخلوا من باب الدار فوجدوا حبيبة وهى تلف المحشى وتفرد أوراق الكرنب المسلوق وتضع عليها خلطة الأرز وتلف وترص فى الصنية أو فى الحلة وقد اكتملت حلة وبدأت فى الثانية والرمح يضرب رأسه فى الجدار ويصرخ :

ـ اعتقينى يا حبيبة ٠

ولا أحد يعرف بالتفصيل ماذا حدث ؟

أخذ الناس الرمح الى الخارج وأجلسوه على المصطبة ولكنه لم يتكلم وبعد أن هدأ نظر الى السماء فوجد الشمس ناظرة اليه وشامتة فيه ، فنطر يده فى الهواء ، وقام ودخل الى الزريبة ، وأخذ الحمار والجاموسة وسحبهما الى الغيط فقالت النسوة :

ـ الغيط عجايب ٠٠ العصر : !؟

ـ لم يتـكلم الرمـح وكذلك لم يتـكلم الحمار ولم تتـكلم الجاموسـة ٠

انفرط عقد الناس فقد اطمأن كل واحد منهم على أن حبيبة بدأت تحشى المحشى والرمح فى الغيط ، فانصرف كل الى حـال سبيله ولكن الشمس كانت تضحك وتميل ناحية الغرب ٠

★★★

قبل آذان المغرب بشهيق كان صراخ الرمح وشتائمه قد عادت مرة أخرى وبكثرة لتفرش أرض الشارع ، ولم يكن الناس فى حاجة للذهاب الى هناك وتمتمت النساء :

ـ ناس فاضـية ٠

ولكن حب نجدة الملهوف والمزنوق جعلت البعض يدخل الى الدار ، ولما دخل البعض الى الدار ،

كان الرمح كما هو ، والجاموسة كما هى فى مدخل الزريبة ، والحمار يأكل شيئا ما على قبة الفرن ، أحس البعض الذى لحق

البعض الأول أن ما يراه لا يصدق ، فحبيبة كما هي تحشي المحشي لم تزل في الحلة الأولى والحمار يأكل شيئا ما على قبة الفرن .

وكانت رائحة المحشي الحامض وتلف الأكل ورائحة الطعام تملأ الدار ، فشمت النساء الأرز والكرنب فوجدوا أن كل شيء قد حمض ..

ولكن حبيبة كانت تكمل المحشي باصرار .

أخذ النـــاس الرمح الى خارج الدار وأحضرت له حميده عبد النبي لبنا وعسلا وخبزا وفانوسا ، وجلس الرمح يأكل وكل واحدة من النساء تهون عليه حاله .

– الصبر يا رمح ... الصبر

– الرجل له مرارة واحدة والنسوان لها سبعين مرارة

– الطبع غلب التطبع

ولكن شيئا ما قطع على الجميع الكلام واحتل المســـاحات المتناثرة بين الجالسين والواقفين كانت رائحة المحشي تزكم الانوف ومن الواضح أنها خارجة لتوها من فوق الكانون .

قالت حميدة عبد النبي : البلد كلها عندها محشي

قال الرمح : لا ... محشي حبيبة لا يبكن اتوه عنه

دخلت بعض النسوة الى الدار فوجدوا الخمس حلل محشي على الكوانين ورائحة المحشي تحمل عرش الدار وحبيبة تهدى النار في الكانون وكل أواني البيت نظيفة .. !! والفانوس يرسل اشعته في باحة الدار ، وحبيبة تعمل وتنظر الى البعيد ضربوا كفا بكف وتعجبوا ... وصمتوا .

دخل الرمح الى الدار وأخذ النعل واطمأن أن المحشى نضج ولكن لابد من تركه يتردد على الكوانين فوق صهد النار بعد هز الحلل وقلقلة المحشى بها ليخلع نفسه كل واحدة مفردة ، ذهب الرمح الى المسجد وعاد سريعا الى الدار وكشف الحلل فلم يجد شيئا . كانت الحلل فارغة من أى شيىء الا رائحة المحشى التى تصل بالجائع حد التخمة ، صرخ السيد الرمح من الألم والضعف والحصار والحيرة :

ـ لم أسألك من أنت ؟ ولم أسأل من تكون عائشة ؟ ولا من أبوها ؟ فلماذا سأسألك عن المحشى ؟ أنا الذى فعلت هذا فى نفسى ربى لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه ... حاضر يا حبيبة ... على كيفك .

صرخ السيد الرمح ، ولكن أحدا من شوارع السكاكرة لم يرد على صراخه ، فاكتشف عــدم وجود حبيبة فخرج وســار فى شــوارعها .

***

قال الرمح بعد صلاة العشاء بزمن طويل :

والله أنا فى حيرة من أمر حبيبة .. معقول يا ناس من آذان المغرب خناق ومن قبلها من آذان الفجر وهى تحشى المحشى حتى آذان المغرب ، حتى حمض المحشى !! ، والله أنا لا أكذب أبدا ، مثلا أنا وهى فى البيت تأخذ نصف شوال أرز وخمس كرنبات لتعمل لنا المحشى ثم أن المحشى الحامض يستوى فى لمح البصر وعند عودتى من الجامع لا أجد من المحشى ولا ورقة فى الحلل ولا حبيبة فى البيت !! ، ثم إن حبيبة لا تأكل أبدا .. وحتى لو أكلت هل ستأكل خمس حلل ؟

مال خيشة على الشافعى :

ـ قريبك مخه لسع ٠٠ برج من عقله طار والعوض على الله ٠

وكان حنكش وشكرى يرقبان الموقف بهدوء وحذر

قال حنكش : سبحان مغير الأحوال

ودون استئذان مال بعض الناس على بعض الناس وانصرفوا والاكثر منهم لم يرهم أحد عند انصرافهم ، فقال شكرى :

من كان يصـــدق أن الرمح الشــــجيع والفتوة يصــبح حاله كالأرملة ، ومن يوم أن سكن دار حبيبة بالاكراه لأن ليس لها راجل يحميها وحاله أصبح فى النازل ٠

كان حنكش يسمع ولا يرد ولكن يبحلق بنصف عينه فى ظلام السكاكرة ، وهمس لنفسه : من قال أن حبيبة تحتاج الى رجل ليحميها ولكن السؤال الأهم لماذا سكتت على هذا ؟

كان عماء الليل مبصرا فى أقدامهم فأخذوا طريقا واحدا يؤدى بهم الى لا مكان فوجدوا أنفسهم خارج السكاكرة وســـط حقولها فقال شكرى :

ـ لا أسكت الله لك صوتا يا حن

قال حنكش : لا كلام يقـــال ولا حاجة مفهومة ، كل يوم السكاكرة تلعب بالناس ٠٠ وانا نفسى العب بالسكاكرة وأغلبها

لكن مش عارف ٠٠ وكل مرة أنوى على اللعب بها أسمع صوتا
يقول لى بلاش ٠٠ بلاش ٠

انطلقت ضحكات شكرى فأطل قمر آخر الليل على شبحين
يسيران وسط حقول السكاكرة ، والسكاكرة من ينظر اليها
يحسبها نائمة ٠

(٢)

له ماء البحر وله ماء النهر وله ماء العين وله ما له وعليه الاجابة وعلينا السؤال وله المداخل والمخارج والهواء ٠

وله أبناء فى الأرض وتحت الأرض ، وله حراس فى الجدران وفوق جريد النخل يبصون علينا ويساعدون الدعاء فى الصعود ٠

وله أجناد فى كل مكان شـــداد ، فاطمئن ياسر السر فانت محروس بالجميع لا نستطيع أن نقول أو نبوح ٠٠ وأنتم يا زوار بيتى الكرام لكم الضيافة والاقامة ، والى بلادكم العودة ، فلا النخيل والتين والصفصاف ولكنه التوت والقمح والسمك ، تعبت الأسماك من جريها فى الماء لكنها تجرى لتصل الى فم من نريد ، وعندما تكاد أن تنفد أعدادها ننجى برحمتنا من نشاء فيزداد العدد الى ما شاء ، وتأتى على أكف الرحمة من هناك هن البعيد وتوزع بأيدى العدل ٠

أرجو الا تأخذوا عائشـــة بعيدا عنى ولا تأخذوها منى ، ولا تأخذوا منها ما أخذتم منى ٠

كانت تسمع ردا وتتلقى اجابة وهى شاخصة للبعيد فتبتسم أو تغير من طريقتها فى الكلام أو تتغير ملامح وجهها أو تظل تنظر الى البعيد وتنتظر ·

وكان هذا الكلام الغير مفهوم لأهل السكاكرة يقع على آذان الشيخ عبد الحميد من أفواه الناس ·· فيصمت ، ويقع البعض منه على آذان العم حفنى فيدمع ، وعندما كانت تمر من أمام الشيخ عبد الحميد كان يقول بصوت عال : هو الله ، وكانت ست الناس عندما تراها تقول : يا مجيد ·

وكان العم حفنى ينادى عليها : يا حبيبة ·

فكانت تظل سائرة فى طريقها كأنها لم تسمع ، وتتخطاه بمسافة كبيرة ثم تعود اليه وتجلس بجواره — وهى التى لم تجلس بجوار أحد من الناس — ويتهامسان ويهمهمان ·· فتضحك حتى تبين نواجذها ، ولكن كان ضحكها بلا صوت ثم تختفى فلا يستطيع أحد ادراكها أو تتبعها ·

لم يرها أحد من الناس قادمة من بعيد أو مارة من أمامه لمسافة كبيرة ولكن دائما تدرك بعد (بعد) أن تمر أو لحظة المرور ·

واعتاد الناس على طبائعها وصاروا يرونها شيئا عاديا ، فاعتادها العرف وصار الناس حولها وهى مستمرة ربما من أول بذور السكاكرة ، فكل الناس تعرف حبيبة ولكن حبيبة لا تعرف الا بعض الناس ·

(٣)

ـ ولا أى شيىء فى الدنيا يقف أمامى ، سأعمل ما أحب أن اعمله على كيفى وعلى كيف كيفى ، أسكن عندها بالذوق أو بالقوة أنا حر ، وكل واحد يحترم نفسه ، أنا لا أنحشر فى أحوال أحد من الناس وفى حالى عايزين ليه تنحشروا فى حالى ؟ ثم ان حبيبة ليست صغيرة وتعرف مصلحتها ٠

اندفعت قناة صرف الجامع (الخرارة) حتى فاضت على الجانبين فامتلأت ساحة الجرن وتحت النخيل بمياه الصرف واثقاله وغطت الرائحة كل مكان وبدأ ماء الطفح يرتفع ويمتد ٠٠

ويمتد صراخ الرمح وينتشر فوق الطفح فلا تعرف من أين تأتى هذه الرائحة الكريهة ؟ ورغم صوت الرمح وتهديداته الا أنك لم تسمع مخلوقا واحدا من السكاكرة يرد عليه أو يتوقف عند كلمة واحدة ليتأملها أو يسأل عما حدث ٠

وأنت لا تعرف هذا الهدوء عن السكاكرة أو هذا السكون والطناش الذى نزل على الناس ، وكأن السكاكرة ليست هى السكاكرة التى نعرفها ٠٠

وبينما الصراخ والتهديدات تأخذ مكانها فى الجرن وكذلك مياه الصرف الا أن المكان والشارع صوتا بالصمت على رأس الرمح الذى أحس أنه يعيش فى الصحراء ، وأن الذى فعله ليس له أى رد من أثر طفح مياه الصرف ٠

ماذا يفعل الآن ؟؟؟

خوض فى مياه الصرف ووصل الى الخرارة فوجدها قد هدأت وأنها تسير بشكل عادى وكأن مجموعة من الأشياء الثقيلة كانت تكتمها وانتهى أمرها واستراحت ، جال فى نفسه خاطر ما فأبعده عن باله بسرعة وتنهد غاضبا ٠

ـ الناس لا تأتى الى فلأذهب اليهم ٠

ذهبت مجموعة من الناس الى العم حفنى ولكنه قال لهم :

ـ يا ناس هو الجانى على نفسه ، أحد منكم يذهب الى أحمد الجديد ويقول له حفنى يقول لك ابتعد عن الرمح لأنه سار فى طريق هواه ولن تجدى معه النصيحة ٠

***

ـ يا ناس من يشترى أرضى ، من يشترى ثلاثة قراريط فى حوض أبو جاموس لأشترى أرضا بجوار أرض حبيبة ، يا ناس أرض بدل أرض يعنى كأنك بتعمل تجنيب ٠

كان الرمح قد احتل بيت حبيبة وكان يحب أن يصبح من أصحاب الأملاك فيضم قراريطه الى قراريط حبيبة ، ورغم أنه يعرف أن حبيبة لا تجتمع مع أحد ولا تختلط بأحد فهي واحدة ولها فدان واحد وبيت واحد بحجرة واحدة ٠٠ وكذلك من استباح بيتها فهو واحد (الرمح) ٠

كان صوته قد قطع على الناس تأملاتهم بعد خروجهم من صلاة العصر ، ولكن أحدا من الناس لم يرد عليه ، ولم يأخذ كلامه مأخذ الجد أو حتى يتناوله لهذا ظل كلامه ملقى فى الشارع تحت أرجل المارة يدوسه الناس بالنعال ٠

ولكن هذا الكلام لم يعجب الرمح فقال بيأس كيأس النساء لدى اختفاء دورتهن الشهرية :

ـ السكاكرة واقفة قصاد ى، وسايقة العند معى والله أحرقها حرقا ٠

داعبه عبد الحميد : أشترى منك القيراطين ٠

قال الرمح : أبيع ثلاثة قراريط ٠

قال : لك قيراطين ولك ثلاثة وأنا معى فلوس قيراطين والأرض جنب أرضى حبيبة وأنا لا أرض لى هناك وبعدها يصـــبح لعمك عبد الحميد أرض يعنى بذرة أرض فى مكان جديد وربك يســهل بالبـــاقى ٠

قال الرمح : يعنى لازم العند وتطليع الروح والمناهدة يا عم عبد الحميد ؟ ٠٠٠

أنا أبيع أرض حوض أبى جاموس مفهوم الكلام يا ناس ٠٠٠

قال عبد الحميد : يا أخى بين البائع والشارى يفتح الله ·

قال قط البندر الخارج لتوه من دورة المياه : بع يا أخى فى القيراطين واشتر بثمنهم أرضا بجوار القراريط الثلاثة ويكون عندك خمسة قراريط فى حوض أبى جاموس زعق الرمح : افهمونى ·· لازم يعنى تطليع الدين ؟ المسألة واضحة وبسيطة قاطعه العم حفنى : واضحة وبسيطة بالنسبة لك وكل واحد يفعل ما يريد لأن مصلحتى ليست بالضرورة مصلحتك ولهذا فنحن نفهمك أكثر من نفسك ·· ولن تموت على كيفك ·· اسمع ستموت على كيفنا ، ولن تكون ، لأنك سكنت بيت على كيفك وتريد أن تبيع على كيفك ، ولهذا فلن تكون لك أرض عندنا وستهزم بالصـــمت والتجاهل لأنك بدأت بالفضائح ومستمر وأنت الجانى على نفسك ·

استفز هذا الكلام الرمح الذى فعلها بأنفه وفمه وقال : نعم ·· لا ·· أبيع يعنى أبيع ، أشترى يعنى أشترى ، على كيفى يا سكاكرة ·· على كيفى يا بلد ·

لم يكلمه أحد من الناس أو الأموات وتركوه فى حاله وخلت الساحة الا منه ومن أحزانه ·

***

كان الرمح هو الولد الوحيد لأبيه ابراهيم الكبرى الذى انجبه وصمت ، فقد أصابه الخرس فى كل مخارج ومداخل جسده ·

وتذكر جدران الســـكاكرة وبيوتها ونخيلها هجمات الرمح عليها جائعا واقتحامه لها فى عز الليل ، كما تذكر صفحات كثيرة من كتاب السكاكرة أن الرمح كان يخرج منها جائعا ويعود اليها حاملا ومحملا بمسروقاته ، الى أن قابله أحمد الجديد وأمسكه من ذراعه بقوة آلمته وأحس الرمح وقتا بأنه ضعيف ·

قال أحمد الجديد : أنا لا أحب أن أمد يدى عليك ٠٠ أخر مرة يارمح والا قال الرمح بطاعة وخوف : حاضر ٠٠ ياعم أحمد ٠

ظلت مسروقات الرمح للأكل فقط الى أن تنبه والده ابراهيم الكبرى فطرده خارج البيت وخارج حدود مظلته ، وللحقيقة فرغم جبروت الرمح وقوته التى تسكن جسده والتى هى أكبر منه ومن سيطرته عليها الا أنه لم يكن شرا محضا ، فمثلا كان يخاف أبيه أكثر من غيره ، وهو طبعا كان أول من يتقدم لاطفاء حريق أو البحث عن شيىء ضائع فيرسل صوته بالنداء عاليا عليه ، ورغم كل هذا فقد صدقت فيه مقولة السيد شداد بأن ليس كل من لف العمامة رجـــل ٠

وعندما قالوا له لماذا يا شداد هذا الكلام ؟

قال ولم يزد حرفا : والله الواد الرمح هذا جخم ودمه تقيل ٠٠ البنى آدم روح وخفة دم قبل كل شيىء ٠

كان هذا الكلام قبل أن يسافر السيد شداد للحرب ويضيع الى يومنا هذا ٠

***

صار الرمح مارقا فى هواء السكاكرة فأين يسكن ؟ بعد أن طرده ابراهيم الكبرى والده ، فى أول الأمر دار فى ذهنه أن يسكن حجرة أم سعيد ولكنه على غير عادته خاف ، كما لم يدر فى خلده أن يسكن بيت حنونه ، لأنه غير متأكد من وجودها من عدمه ، وكذلك ست الناس قد استبعدت من الموضوع نهائيا ، فتفتق ذهنه عن بناء بيت له بجوار الجبانة ولكنه تذكر حكاية عمك عبد الفتاح وهنية زوجة حنكش والأرانب ٠٠

فقال بصوت مسموع : أنا جن البنى آدمين والجن نفسه ولكن عندا فيكم لن أسكن هناك .

ووجد الرمح أن كل الطرق التى يود السير فيها غير مأمونة وأنها لن توصله الى أى شيىء ولن يكون له فى نهاية الأمر بيتا يأويه !

قرر الرمح بعد أن هذه التفكير أن يتزوج أى امرأة أو فتاة ويسكن فى دار أبيها وتنتهى المشكلة من أساسها ، ولكنه كلما ذهب الى فتاة ليتزوجها اما يجــدها قد خطبت ليلة أمس أو ماتت أو تزوجت ، حتى أن انذارات كثيرة وصلت الســكاكرة من القرى المجاورة بالنصح ألا يتقدم الرمح الى بناتهن — وكان هذا أول انذار له .

كما كان هذا أول رفض علنى لشاب من السكاكرة وبهذه الجرأة ومع ذلك لم تخرك السكاكرة ساكنا ولا متحركا ولم تسع لرد كرامتها أبدا .. كأنه ليس أحد أبنائها واذا كان الأمر قد وصل الى هذا الحد من الهوان فلماذا لا تطرده السكاكرة خارجها كما فعلت قبل هذا مع آخرين ؟

لهذا ظل الرمح موزعا قوته بين الحيوانات — كمــا تقول الشائعات — وبين النساء اللواتى « وحتى تبقى السكاكرة فى ذهن البعض خارج نطاق الدنس والرجس فاننا نقول : النساء اللواتى من خارج السكاكرة ، وكأن السكاكرة خلقت نفسها من توالدها ونقاء طهرها المنتخب ولكن للحقيقة فانهن كن من السكاكرة ومن خارجها حتى تكتمل دائرة الأشياء ولــكن من يســتطيع أن يتهم من ؟ » .

بقيت الأشياء معلقة فى رقبة السكاكرة والزمن ولكن الرمح لم يستطع صبرا فبعد وفاة أبيه ذهب لاستلام منزلهم فوجد أن والده قد باعه للحاج على الحنجيرى فبكى ونهنه وقال :

ـ الرمح مظلوم دنيا وآخرة ·· يا خلق ارحمونى ·

فلم يرد عليه أحد من الناس ·

ظلت حيطان السكاكرة تطرد الرمح من هناو من هناك فآوته الحقول الى أن اقتحم بيت حبيبة ووقف يتحدى السكاكرة ، وعاش مع حبيبة ·

ومن الغريب أنها لم تقاومه ولم تفعل أى شيىء يدل على أنها تعرضت هى وبيتها لعدوان سافل سافر فى عز النهار وكأنها لم تره أبدا ، ولا تحس بوجوده ·

قالوا أنها رضيت ورضخت للأمر الواقع عليها من الرمح ·

وبعد أسبوع من وجود الرمح فى دارها شاهده الناس عامة وأهل السـكاكرة خاصة وهو يكنس الدار ، ويعلف المواشى ، ويسحبها الى الغيط ، ويقوم بكل شؤون الغيط والبيت ، الى جانب بيعه أرضه / قراريطه / وصرف فلوسها على حبيبة فقال الناس : تزوجها ·

فقهقهت حيطان السكاكرة ·

(٤)

بعد حوالى ستين ليلة وستين نهار جلس الرمح يبكى وأمامه حنكش وشــكرى وبدأت الناس تتجمع كقطرات المطر على أرض البركة دائرة والرمح فى وسطها ٠

قال شكرى : تزوجها يا رجل ٠

لم يرد الرمح ولكنه تنهد وقال بعد فترة قصيرة : حبيبة ليست معنا ٠٠٠ وأنا لا أستطيع أن ٠٠٠٠ كيف ؟ ٠٠٠ شبت والله من كثرة ما رأيت منها ٠

قال شكرى : فسر كلامك يا نوح ولا تنوح كالغراب النوحى ٠

قال الرمح : ليس عندى كلام ٠ م٠ممم ٠٠ أنا مظلوم يا ناس ، ولا أستطيع تركها ولا مستريح فى السكن عندهــا فلا هى زوجتى ولا هى أمى ، وأرى ما أراه من أحوالها ولا أقدر أن أتكلم ، وأحس بأننى لست رجلا ٠

قال شكرى : عشيقتك يا حزين ؟ أو ربما أنت ضعيف البنية التحتية والمكنة شديدة ٠

قال الرمح : على كيفك يا سيدى ، أنا يدى فى النار ٠

قال حنكش : أنا صابر على كلامك من الصبح لكن يا أخى ارفع يدك من النار وارحل ٠٠٠٠٠ تأكل خيرها ثم ترميها بعد ذلك ؟

قال الرمح : طبعا من لا يعرف يقول عدس ٠

قال شكرى : ما هى العبارة بالضبط ؟

قال الرمح : من يعرف حبيبه ؟

قالوا فى نفس واحد : كلنا ٠

كان الهتاف قاطعا ولكن صوت الرمح الذى تسلل بهدوء خرج ضعيفا وقاطعا كلدغة الثعبان فصمت الجميع ٠

★★★

وقفت كلاب البلد كلها والماعز والخراف والأصحاب والغير أصـــحاب والدجاجات والأرانب تنصت للحكاية بينمـــا التيوس والجديان فوق أسطح المنازل تبحث عن بلح متساقط أو لوز قطن أخضر يؤكل ٠

توقفت حركة النخيل بينما اهتزت حجرة أم سعيد كلما ذكر اسم حبيبة ، وعوت الكلاب كأنها تشاهد عزرائيل ، وساد صمت غريب على الناس ليس ككل صمت مر بهم قبل ذلك ، وعندما تلمسه الناس وجدوه صمتا سميكا ولزجا وثقيلا وله رائحة فاستكان الناس

له جلس من جلس ووقف من وقف وكذلك من لم يجد له مكانا ، وظل واقفا من صمم على الوقوف أو نسى نفسه ، بينما عدل الجالسون أنفسهم واستعد الجميع لسماع الحكاية ٠

قرفص الرمح : حبيبة بنت عزيزة بنت شاهينداس وليس لها أب ٠

قال حنكش : ٠٠٠٠ تكلم كويس ٠

قال عميرة : (الذى يوجد ولا يوجد فى السكاكرة) : ومن الشيخ الذى كان عندها فى الدار ودفناه فى مقابر عمك الشيخ توفيق ليلة العيد الكبير ؟

قال الرمح : كنت صغيرا يا حاج ولا أعرف ٠

قال عميرة : والدها ٠

قال شكرى : المهم ٠٠

قال الرمح : هذه الوليه تكلم نفسها بالليل والنهار ، ويا أخى بيتهيأ لى أنها تكلم مخاليق تراهم ويردون عليها ٠٠٠ وفى بعض الأوقات لا أجدها فى البيت أو تحضر ولا أعرف كيف ؟

والسر الذى يعرفه الناس أن عائشة الخياطة ابنتها ، ولكن لا تزورها ولا تأتى اليها ولا تأتى سيرتها على لسانها معى ؟؟؟

قال حنكش : كل واحدة قالت لواحدة يا بنتى بقت بنتها ؟ يا سلام ٠٠٠ يبقى كل الناس ولاد كل الناس ٠

قال الرمح : حبيبة فى أول أيامى معها فى الدار أقفلت علينا الباب فقلت فى نفسى جميل ٠٠ سنبدأ الشغل ولكنها ظلت تكلم

نفسها فقلت نتزوج عرفي ولكنها لم ترد وأحسست أنني مقيد وعرقان وقلبي واقع في كعاب رجليا وهي أصبحت في عيني جميلة خالص فسمعتها تقول « رميت عليك شباك الرهبة والخوف ، وامتلكت قلبك لا تترك الدار أو الغيط سأتزوجك ولكن في المكان الموعود عندما يريدون ، وجعلت قلبك رحيما على الحيوان وعلى وجعلتك عبدا لمن أعرف » ٠

أنا لم أفهم من هذا الكلام شيء ولكن حفظته كما قالته وأظن أنه عمل والعلم عند الله ، ولكن ما طمأن قلبي أنها قالت سنتزوج ٠

قال شكري : كلام عسل في عسل كأنه أحلام ولا أحد من الناس يستطيع أن يحجر على أحد في الحلم ولكن يا أخي اذا كانت عائشة ابنتها فمن زوجها ٠٠ (والد عائشة) ؟

قال الرمح : الله أعلم (وصمت صمتا ثقيلا) ٠

قال سعيد المتوكل : أغلب الظن والله أعلم أن وراء الحكايــة سر ٠

قال حنكش : عمك حفني عنده الأسرار ٠

قال شكري : أبدا الحكاية واضحة كالشمس ، عائشة أبنتها من زوجها الأول قبل الرمح ، وهي جاءت بها الى السكاكرة ، وكانت عائشة وحبيبة قد عاشتا مع فاطمة السبعة في الخارجة أيام زمان عندما كان الهيش أعلى من البوص والبوص أعلى من النخل ٠

قال حنكش : هذا كلام في كلام وأصغر عيل في السكاكرة يستطيع أن يقول مثله ويحكي أجدع منه ، ثم أن فاطمة السبعة ٠٠ فاطمة السبعة ٠٠ ولا أحد منا شاف لا سبعة ولا خمسة ٠

قال سعيد المتوكل : سأحكي لكم الحكاية بالتفصيل ، في ليلة من ليالي الشتاء وكنت صغيرا وكان أبي المتوكل يحب أن يسير في الليل خاصة في ليالي الشتاء في عز البرد ، وكانت الدنيا تمطر وصارت الشوارع بالوطة وطين كالصابون ،فخرج أبي المتوكل الى دكان القصب فتعلقت به وأمسكت بملابسه وتشعبطت فيه فحملني على كتفه ، وسار بي وقال توكلت على الله بسم الله الرحمن الرحيم وخرجنا في عز البرد والظلام ولم نجد نورا الا عند بيت عمك توفيق كان نور الفانوس يملأ المكان أمام بيتهم ، ويجعل خيالات النخيل تهتز كأنها مارد أو جن ، وكنت قد حبست بولي عندما مررنا من أمام حجرة أم سعيد فقلت لأبي في أذنه ، فأنزلني على المصطبة أمام دار أبو عطا في نوربيت عمك توفيق ففككت الحصر وحملني وسار بي من ناحية [الحربات] الى [واطية المعمل] في مكان السوق القديم حتى دكان القصب ، وكان النور يمد أصابعه من شقوق شباك دكان ألقصب فتبين في الظلام ، وكنت تسمع من قبل دكان القصب بمسافة صوت الرشف والمص كأن عائلة تبكي على ميت لها ، خبط أبي على شباك الدكان فقال الاتف : نعم والاتف هو صاحب الدكان .

رد أبي المتوكل : المتوكل .

دخلنا بعد أن فتح لنا الباب وكان العم حفني هناك وعندما قلنا ـ مساء الخير كانت الأمطار قد بدأت بلا رحمة ، قام الاتف وأشعل النار في كوالح الذرة ، وجلسنا نمص القصب بينما الاتف يراقب النار ، وكنا نرشف وكان أبي يقشر لي القصب وعلمني أن نصف المص رشف ، وكنت خائفا من صوت المطر والريح وأحس كأن الدكان يهتز ويرقص من شدة الرياح ، وفي عز هذا الخوف سمعنا صوتا يغني !!!

لا أعرف أن كان هذا الغناء جميلا أم لا ؟ ولكن ما أعرفه أنه كان يهز جدران القلوب ويخلع ظلمة الليل من عباءته الكبيرة ، وكان خوفى أكبر من البالطوا المعلق على الحائط أمامى ولا أعرف له صاحب ٠

قال عبد المعطى : عفاريت السكاكرة قامت ٠

قال عمك حفنى : فاطمة السبعة تدور فى ميعادها الليلى وتغنى للمطر رحمة الله وحبل الأرض ٠

قال أبى المتوكل : صحيح يا عم حفنى فاطمة السبعة مخاوية ؟

قال العم حفنى : على غير رضاها وأمها كذلك أو ربما برضاها ، الله أعلم ؟

وفى كل مرة نسمع ونحس أن فاطمة السبعة لها حكايات كثيرة (ثم سكت العم حفنى فسكتت الأصوات عن المص والرشف والتكسير واللعب فى النار أو المعسل ، وكاد النوم أن يغلبنى وكنت أحس أننا لسنا فى دكان القصب وأننا فى مكان بعيد لا أعرفه والدنيا ضباب ولا أى شىء أراه ، حولى وصوت عمك حفنى يخرج من صدرى كأنما يقول لى وحدى) ٠ فاطمة السبعة ٠٠٠٠ بصوتها سبعة مغنين من الرجال والنساء من الجن والانس ، فهى سليلة ثلاث عائلات من الجن وثلاث عائلات من الانس حتى وصل الأمر الى خلاصة عائلات الجن هو والد فاطمة وخلاصة عائلات الانس امرأة هى أم فاطمة ، ولكن الأمر لا يخلو من بعض الاختلاط بين الانس والجن فى سلالات العائلتين ولكن لأقرب لكم المسألة ٠

(وكان صوت الغناء قد اشتد ووضح وأنا أموت من الخوف والدنيا برد شديد ولا أرى أحدا أمامى أو حولى ٠٠٠) ٠

قال أبي : فسر كلامك يا حفنى فسر يا جد ·

انطلق صوت العم حفنى : أبيها من سلالة سلسة سلسلة من الجن وكل أفراد العائلات م ن المغنين لهم أصوات جميلة وشجية ، وفي البداية كانت العائلة من أخوين ينجب احدهما ذكرا والآخر أنثى هذا مع العائلة الأولى وبنفس الترتيب مع العائلة الأخرى ، ولكن جاءت أنثى فتزوجها وأنجبا ذكرا تزوج من ابنة العائلة الثالثة وكان المولود ذكرا سليل ثلاث عائلات من الجن هو والد فاطمة السبعة ، ويومها ماتت الجن كلهم · وكذلك الحال بالنسبة لعائلات الانس وبنفس الترتيب حتى وصل الأمير الى والدة فاطمة السبعة فتموت العائلات التى من الانس كلها ، ولكى نختصر الحكاية تزوج والد فاطمة السبعة من أمها ، وكانت فاطمة ووالدها ، وجاءت فاطمة خلاصة الغناء ما بين البشر والجن وبذلك يكون فى رقبتها سبع عائلات من الجن والانس من المغنين الأوائل (المافوق) ، وفاطمة السبعة أحد الخيوط الرئيسية فى سجادة السكاكرة وهى ظلت فى الهيش فى (الخارجة) ترعاها الجن وتعلمها الغناء حتى سكنت فى بيت فى الخارجة ثم رحلت الى حال سبيلها وظهرت لنا حبيبة ومعها عائشة الخياطة ، ثم سكنت كل واحدة منهما فى بيت وحدها ·

انتبهت من النوم فلم أجد العم حفنى ووجدت كل الناس فى دكان القصب فعرفت أننى نمت وعمك حفنى يحكى الحكاية ، وحمدت الله أننى نمت حتى لا يأخذنى أبى المتوكل فى عز الحكاية ونروح على الدار فتطلع لنا العفاريت ولا نسمع الحكاية ، خرجنا وحملنى أبى المتوكل مع العلم أننى مثل أبى أحب أن الغوص فى الطين والمطر ولا أحس بالشتاء الا فى المطر والطين ومياه الأمطار التى كانت تغرق أقدامهم وتغرق وسطى اذا كنت فى الشارع ··· وقد نسيت مع مرور الأيام أن أسأل عمك حفنى عن باقى الحكاية

أو أسأل أبى المتوكل مع أنه أمامى ليلا ونهارا ، ولكن دائما أنسى وحين صممت على سؤاله عن الحكاية وأصنها ودخلت علية حجرته بعد صـــلاة العصر وجدته ميتا ... (رحم الله أبى المتوكل) ، ولكن ما جعلنى أطق من الغيظ أن وجهه كان يضحك فقلت : العوض على الله توكل المتوكل .

قال شكرى : هذه ليلة لن تفوت على خير ، وكل واحد فى السكاكرة متفق مع التانى ليجننك يا ناس عايز كلام صح وصريح ، عائشة الخياطة مغنية أم خياطة ؟ من أبيها ؟ من زوجها ؟ هذا أولا ثم هل الرمح عشيق حبيبة أم زوجها أم كلبها ؟؟؟

قال الرمح : الله يسامحك ، حبيبة لم تقل لى أى حاجة عن هذه الأسئلة .

قال عميرة : عائشة كانت خياطة تخيط فساتين الفرح وأكفان الموتى يعنى تخيط ملابس الزفاف من أى نوع ، ثم تابت عن الخياطة ولا يعرف سرها الا الاستاذ أحمد وحبيبة .

قال الرمح : آه حبيبة ... آه والله أشك انها انسية هى تكلم الحيطان والنار والكانون وتنام فوق سطح الدار عارية كما ولدتها أمها وتحضن القمر وتكلم النجوم وتنام ملط زلط فى ليالى كثيرة فوق سطح الدار الى أن يأتى القمر ويحملها على جناحه ويرحل بها وانا شفت هذا بعينى التى سيأكلها الدود ، كل ليلة لها حال ولا تكف عن العمل الا أربعة أشهر وسبعة أيام فهى تصوم ولا تأكل ولا تشرب ولا تعمل وتظل تبكى ليلا ونهارا حتى أننى أترك لها البيت وأنام فى الغيط والناس تظن أننى زوجها ولكن والله لم ألمسها أبدا (ليست عفة منى ولكن خيبة أمل ، ولم أندم على شىء فى الدنيـــا فى حياتى

الا على ضياع بيت أبى وو‌جودى مع حبيبة ، ولم أندم أبدا على ضياع الأرض ، ولكن يصعب على تركها فهى ربطتنى فى الدار وأنا أبكى فى ليلة العيد وكل ليلة مفترجة وفى ليالى كثيرة وأترجاها :

ــ اعتقينى يا حبيبة ٠٠٠٠٠٠٠ ٠ (وهى لا ترد ولا تصد)

★★★

اتصل حبل الكلام وعدد الناس يتناقص والليل يدخل وسحب الدخان تعلو فسحب الناس خرافهم ومعيزهم وأخذوا بطهم وطاردوا أرانبهم الى البيوت ٠

وظل الكلام متصل والجلسة يتناقص من أطرافها الناس كأنها بركة تجف قطرة قطرة ، حتى ظن الرمح أنه كان يكلم نفسه ، فقال بصوت عال : ــ سأنام فى الغيط ٠

وفى نفس اللحظة وجد حبيبة واقفة أمامه فقام واقفا ، وسارت فسار خلفها يتبع خطوها محاذيا لا أمامه لا خلفه ٠

(٥)

كانت الشمس المجروحة فى عز الظهيرة أعلى من البيوت التى فى السكاكرة وقد تمكنت من البيوت تمكن العاشق من عشيقته ، وكانت هذه الشمس بالذات قد جرحت من جريد النخيل الذى ظل واقفا وسط السماء ولم يفسح مجالا لها أثناء نزولها الى السماء السابعة ، وكانت الشمس أثناء نزولها الى السماء السابعة وحتى بعد جرحها لا يشغلها الا أمرين :

أولهما : فهو غناء عائشة الخياطة الجميل والمتصل نابعا من القلب بالتحديد من مكان ما بقلب السكاكرة ، وكان هذا الغناء آخر نغمات الوداع التى تطلقها البجعة .

والأمر الثانى : هو أن حبيبة كانت تستحم وسط الحوش المكشوف ....

اصطدمت الشمس بجريد النخل لأنها لم تقدر المسافة بينها وبين الجريد فجرحت ، لهذا جرى الناس الى المصارف للاستحمام ، وبدا جرح الشمس ينزف ثم بدأ يزرق ، ثم بدأ يبرد ، ولكنه ظل

نازفا مع أن أحدا من الناس لم يكن يستطيع رفع رأسه الى أعلى ولهذا فلم يشاهد أحد منهم الجرح النازف ·

لهذا فان بقايا الدماء التى علقت على أطراف النخيل لم تكن ظاهرة ، وعندما تجمع الدم كتلة حمراء عند نهـاية الأفق بدأت الشمس فى النزول خلف الأرض لتنام ·

وصعبت على الناس الرؤية لأن الليل بدأ حبك عباءته على جسد السكاكرة فانسحب كل واحد الى بيته وعادت البهائم بالناس من الحقول ، وارتفعت أدخنة الكوانين تسند سقف السـماء وبدأت سيمفونية الطبيخ تعزف ··· لابد أنها ليلة الجمعة ···

★★★

امتدت الطبالى وعملت الأيدى وتجشأ الناس وأحست النساء بميل للراحة وداعب النوم عيون العيال ، ولكن شكرى وحنكش وسعيد المتوكل لم يعجبهم الحال وهذا الكسل فخرج كل واحد من داره بلا أى اتفاق فى ميعـاد واحد وان كان شكرى قد زعق فى هريسـة زوجته : عيشة تجنن الجن ··· والله سأهج من الدار وأسـير فى ستين داهية ·· أعوذ بالله · وخرج غاضـبا وهريسة تمصمص شفتيها وتبحث فى جيوبها عن سبب لكل هذا ، بينما خرج حنكش من الدار قائلا ق اذا سأل أى واحد عنى فأنا فى الجامع ··· (ولم ينتظر التعليق) وعندما تسلل سعيد المتوكل قالت أمه : على فين يا سعيد ؟

قال : ان شاء الله ···· أفك عن نفسى ·

وكان اتجاه كل منهم هو بيت العم حفنى ، ولكن آذان العشاء أوقف كل واحد منهم فى مكانه وسط الشارع مرددا خلف المؤذن ،

وما ان انتهى المؤذن حتى رفع كل واحد يديه الى أعلى وجعل كفيه حفنة يتلقى فيها الاجابة ٠

« اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ٠٠ ٠٠ ٠٠ آمين » ٠

وأسر كل منهم بدعاء خاص بصوت مهموس فى المساحة الخالية من الكلام ومسح كل منهم على وجهه ، ولحظة انزال الأيدى كان طريق كل واحد منهم قد اختلف عما نوى عليه فى البداية ، ولكنه اتفق مرة أخرى فتوجهوا للمسجد ٠

***

وقف حنكش أمام باب المسجد بعد صلاة العشاء وكذلك شكرى وأبصر كل منهما الآخر ولم يكلمه حتى جاء سعيد المتوكل ودخل عليهم فى وقفتهم قائلا : حرما قال : جمعا ان شاء الله ٠

دخل عليهم قط البندر قائلا : الرمح كلامه غلط فى غلط وأنا الود ودى أسوى به الأرض أصل الموضوع بالطريقة ٠٠٠

قال شكرى : صل على النبى يا قط ، أنا مش فاهم انت تقصد أى موضوع ؟

قال قط : ألفين صلاه عليك يا نبى يا سلام ٠٠٠ موضوع ؟ موضوع الرمح ٠٠٠٠ ثم التفت الى حنكش : مساء الخير يا وش الخير ٠

نظر شكرى الى حنكش وأدار حنكش وجهه ناحية سعيد المتوكل وقال : نتوكل ؟

قال سعيد : توكلنا على الله

بدأت الأقدام تتحرك تاركة قط فقال قط : ــ مشـــــوار خصوصى ؟

قال سعيد : تعال معنا ٠

قال : لأ ٠٠٠ عندى نوباتجية ناحية الزواهرة ٠

قال شكري : على راحتك ٠

سار سعيد المتوكل وشكرى بينما تأخر عنهم حنكش قليلا ، ولكن المقصد كان واضحا فاتخذت الأقدام طريقها الى هناك ٠٠٠ حتى وصلوا ودقوا الباب ٠

(٦)

الحجرة هي هي والعم حفني هو هو لم يتغير ، ولكن هناك شيء ما تغير يخيم على المكان ولا يمكن تجاهله .. ربما الرهبة ؟ .. ربما الخوف ؟ .. ربما بعد أن أخذ العم حفنى منا السلام قلنا له : جئنا لك فى موضوع .

قال العم حفني : خيرا ان شاء الله ، وما فائدة الموضوع بالنسبة لكم ؟

قلنـا : المعرفة بالشيء أحسن من عدم المعرفة .

قـال : على ألا يخرج هذا الكلام منكم الا بعد موتي .

قال حنكش : أطال الله لنا فى عمرك يا عمنا الكبير وأبعد عنك الشر .
جلس فاعتدل ، ونظر فسافر ، وأخذنا معه على بساط الحقيقة والتى يقول عنها الموتى الخيال وصار الكلام يصل الينا من داخلنا .

قـال : الحكاية تبدأ منذ زمن بعيد فعندما بدأت الحياة ببيوت السكاكرة في الظهور الى الوجود ، وانتظمت الترع والمصارف

والقنوات والزواريق ، كان يصـاحب العمل غناء كثيف ، ربما نقر درابك أو تصفيق بالأيدى أو أصوات تتردد ، أشياء ما قبل الكلام ، ولم يكن أحد من الناس يحاول أن يبص أو يشوف من الذى يغنى ؟ لأن الغناء كان يأتى من كل مكان واستمرت هذه الحكاية سنوات ـ كما يقولون ـ ولكن منذ مئات أو عشرات قليلة من السنين ارتفع صوت الغناء من وسط الهيش والبوص وكان يصاحب الغناء صوت أطفال وخراف وماعز ، ولم يكن يصاحب أحد منا أى طفل من عياله ، ولا أحد منا يعرف أو يرى أى مخلوق فى هذا المكان ، اللهم الا بعض عائلات محدودة ومنعزلة كانت تسكن على أطراف الخارجة ، وكانت تتزوج من بعضها ، ولكنهم أولا وأخيرا شلات صوف تدخل فى نسيج السكاكرة وان كنا لا نعرفهم ، وهل من المعقول أن نعرف كل شيء أو تبوح السكاكرة بكل شيء .

ثم ظهرت حكايات عن العشاق والجن وعن عشق رجال لنساء وعشق الجن لنساء من الانس ولأن بطن السكاكرة كبير وواسع فهى تقبل فيه حكايات كثيرة وترى أن ذلك يخصها حتى لو خالفنا فى كل شيء .

وتروى الحكايات التى قبلنا عن عائلة من الجن الأحمر تزوجت من عائلة من الجن الأسود فجاء الأولاد بلون أحمر من الجن وصارت هذه العائلة لها علاقة بعائلتين من الجن ليصبح ناتج العائلة الأولى والثانية مع ناتج العائلة الثالثة والرابعة هما المرشحتان لانجاب جيل ثانى وتستمر التزاوجات بينهما حتى يأتى والد فاطمة من الجيل الثالث خلاصة الغناء ليرى أم فاطمة السبعة التى هى خلاصة عائلات ثلاث الغناء صناعتهم ، ولكنهم من الانس والشيء الغريب أنه بمولد والد فاطمة ماتت عائلات الجن أو قل للحقيقة اختفت ،

وكذلك الحال بالنسبة لوالدتها فماتت كل عائلاتهـا من الانس وللحقيقة قل بادت ٠

أصبح الموضـوع عندنا ملخص فى عدد من التزاوجات التى أوصلتنا الى والد فاطمة ووالدتها ٠

وكانت الخارجة مرتعا للغناء فى ضوء القمر فى تنافس بين غناء الانس والجن ، وكانت هذه العادة ملازمة للعائلات سواء من هؤلاء أو من هؤلاء ، ورأى الجنى الذكر الأحمر أم فاطمة السبعة فجن بها وهو جنى وابن جنى ، فزلزلت الأرض زلزالها وكان يظهر لأم فاطمة السبعة فى كل اتجاه وهى تخاف منه وترتجف فيغنى لها ـ وفى احدى المرات كان الحيض قد أتى أم فاطمة فذهبت لتستحم وهناك ظهر لها الجنى وأخذ ملابسها فغنت له فحن وأعطاها ملابسها من الماء وعادت معه الى الخارجة ، عشقها الجنى أكثر من الأول وان كانت ما زالت تخافه ، فظهرت أغانى الهجر والعشق والصد واللوعة والحب ، واتفقا على الزواج وكانت شروطها كالآتى :

١ ـ لا تقوى على ولا تأخذنى رغما عنى ٠

٢ ـ اذا جاءت بنت تسمى فاطمة واذا جاء ولد يسمى اسماعيل ٠

٣ ـ يغنى كل واحـد منا للآخر ألف ليلة والأحسن غنـاء تكون العصمة فى يده ٠

٤ ـ لا رجوع فى الشروط ، والرجوع هو فك لكل الشروط ٠

كسبت أم فاطمة الرهان وتزوجا وبعد ميـلاد فاطمة ماتت أم فاطمة ولكن بقى والدها يرعاها وظهرت دلائل صوت فاطمة وبز

الأصوات جميعها فهي تجمع في رقبتها أصوات سبعة مغنين من خلاصة أساطين الغناء من الأنس والجن ·

وصارت تغني في مواسم الحصاد والزراعة والأفراح والبناء والفيضان وسبقت عمرها فصارت فاتنة حلوة ·

ولكن دوام الحال من المحال ، ظهر لفاطمة السبعة جني قوى ظل يتابعها كظلها ويقطع عليها الطريق ، وكانت كلما رأته احتبس الغناء في حلقها ، وبدأت مضايقات الجني لها حتى قالت لوالدها فقال أعرف وله ميعاد ·

وفي يوم من الأيام كان موسم جمع البرتقال وكانت فاطمة تغني وصوتها يأتي من كل مكان في مزارع البرتقال وقد اتخذت لنفسها مكانا بعيدا عن العمال فظهر الجني لها فارتاعت ، وراودها عن نفسها فصرخت فظهر والدها بجوارها،وكانت الشمس قد نزلت لتحرق الجني المارق ولكن المارق أمسك الشمس من تحت ذقنها وأوقفها في مكانها ، ودارت معركة رهيبة بين والد فاطمة والجني المارق وسكت صوت الغناء وتكسرت الأشجار وانتهت المعركة بمقتل والد فاطمة السبعة وسالت الدماء لتروى أشجار البرتقال ، فظهرت في العام التالي ثمار برتقال تحمل دم المقتول في داخلها فصار برتقالا بدمه، وهكذا تم تحديد مكان ونتيجة المعركة، ورأت الشمس ما حدث ورأت عجزها عن احراق المارق فانكسفت فصار يوم كسوف الشمس هو يوم المعركة ، وصارت الشمس تنكسف كل عام في نفس الميعاد عند تذكرها المعركة ،، وبهذا تم تحديد مكان وزمان المعركة ، وصارت ذكرى ممندة ، ومع ذلك فالناس تنسى ، والنسيان دواء القلق وأساس الراحة · وبهذا صارت فاطمة السبعة من حظ الجني المارق والمنتصر ولكن لم تكن لها خبرة أمها فلم تأخذ الشروط ولكن قالت له :

أنا مغنية وأنت لست من المغنيين الأصلاء ، فليس لك الحق فى الزواج منى ، وعندما هم بالكلام اكتشفت أن والدها قد سلبه صوته أثناء القتال فتذكرت صيحات الأقدار عليها وكانت فى صغرها تسمع أصواتا فى أذنيها بأنها ممتدة فى غير نسلها ، وستنجب ذكورا لا ينطقون ، ولم تفهم وقتها شيئا ولكن الأقدار قالت وسمعتها ورأتها تفعل ٠

★★★

صارت تتمنع وتهرب منه وهو يهددها فى غضبه ، ولكن القلب العاشق يقتل صاحبه ويهد حيله أمام المحبوب ٠

وكانت فاطمة تخاف الوعد وكانت قد التصقت بحبيبة وبدأت تنام فى حضنها كل ليلة خوفا وطمعا ٠

قال شكرى : الوعد ؟

أشار له العم حفنى فسكت شكرى وأكمل العم حفنى ٠

– ظلت فاطمة تنام فى حضن حبيبة وكان الجنى يخاف من حبيبة وحبيبة هذه لا أحد يعرفها ولا يعرف من أين أتت ٠٠٠ !!!
قال حنكش : ولا أنت يا عم حفنى ؟

فأكمل العم حفنى : والذى يعرف لا يقول ٠٠٠٠ وتقول ست الناس : أنها أقوى امرأة على سطح الأرض وتحت سطحها ، وأنها جاءت للوعد وستذهب بما فعلت وسترى حشيشة بطنها ولا تعرفها ٠ وكانت فاطمة تذهب الى الأفراح والمآتم والحصاد والزراعة و ٠٠٠ ومعها حبيبة ، وكانت حبيبة تتغيب عنها لبعض شأنها فلا تستطيع لومها أو معاتبتها ٠ وفى احدى الليالى كانت فاطمة نائمة وحبيبة متغيبة عنها فقلقت فاطمة الى أن جاءت

حبيبة وأخذتها فى حضنها ونامت ، ولكن حبيبة سمعت صوتا واضحا يناديها خارج الدار فخرجت وكان الوقت قبل ظهور لمة الفجر وهو وقت يشبه ما قبل الغروب ، وقت لا تستطيع تحديده بدقة ولا تقدر على تميز الديب من الكلب ياحنكش فاهم ؟

قال حنكش : يدوم كرمك يا عم حفنى والله لا تنسانى من كلامك الجميل ٠

قال العم حفنى ضاحكا : لا تزعل قصدى بين الديب والحمل ، فى هذا الوقت بالذات خرجت حبيبة تستطلع النداء ، وهذا ليس اسمها ولكن هذا أسم أعطته لها فاطمة السبعة ، خرجت حبيبة فتهيأ لها شخص ما فى الضباب فسارت باتجاهه ، ولكنه لم يتوقف ولم يسرع فى السير لهذا حاولت حبيبة اللحاق به ، وطال بها السير فوخزها ضميرها فأحست أنها أخطات وأنها يجب أن تعود الى البيت بأقصى سرعة ، ولكن قطع عليها هذا صوت استغاثة فاطمة ؟؟ !!

رجعت حبيبة أسرع من الرياح فوجدت فاطمة ممزقة الملابس والدماء تسيل منها وهى تبكى فأخذتهـــا حبيبة فى حضنها ولم تعاتبها فاطمة ولم تعتذر حبيبة وظل الأمر مكتوما عندهما ، ولكن حبيبة فى هذه الأيام كانت تتغيب كثيرا عن فاطمة وتنام بعيدا عنها ولا تأتى لها الا بالليل !!! ٠٠٠٠ انقطعت فاطمة السبعة عن الغناء وخيم جو من المجاعة والقحط فوق الناس ولكن السكاكرة تنهدت وظلت الحياة تسير بها فى مسيرتها اليومية العادية ، ولاحظ الناس أن الطيور لا تغنى وأنها عندما تحاول فتح فمها تتدفق منها الدماء ، وأن الرياح أغلبها عواصف ولا نسيم فيها ٠٠٠٠ عام كامل وليس تسعة أشهر عاشته الناس فى رعب وهلع ٠

وفى يوم الميلاد ظهر الجنى فى ركن الحجرة وتأخرت حبيبة ، ثم جاءت معتلة الصحة مهضومة الجسد وجلست فقالت فاطمة للجنى اظهر لحبيبة (فظهر فعرفته حبيبة) ٠

قالت فاطمة للجنى : هذا يوم الميلاد الموعود ، فبعد ميلادها سأموت فعليك أن تأخذ رقبتى المغنية لتعلمها الغناء وآخذ أنا رقبتك الخرساء ٠

وكان على حبيبة أن تقطع رقبة فاطمة والجنى وتبادلهما وتأخذ المولود بعيدا ٠

قالت فاطمة للجنى : عليـــك الآن بالإنصراف ولا تأتى الا عندما أنا ديك ٠

غاب الجنى وظلت فاطمة فى متاعب الولادة حتى أنزلت المولود فأعطته لحبيبة دون أن تنظر اليه وراحت فاطمة فى غيبوبة ، أخذت حبيبة شــيئا ووضعت ثم خرجت لبعض الوقت وعادت فوجــدت المولود يلعب ٠

تهيأ لها أنها رأت المولد ذكرا ؟

شىء ما حدث فى غيابها ؟

ولكنها وضعت مكان المولود شيئا وأخذت شيئا ، حملت المولود وخرجت به لصوت يناديها فرأت شبحا بعيدا يناديها فى الضباب وكانت الدماء تسيل على افخاذها وهى تسير حاملة المولود واحست أنها وقعت فى شرك الغواية فدخلت السكاكرة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

عادت حبيبة وأيقظت فاطمة السبعة التى نظرت فى وجه المولود وقالت :

هذه خرساء وربما تكون ميتة ٠

هتفت حبيبة بخوف قلب الأم : لا ٠٠ انها عائشة ٠٠هى حية حية

وأمرت فاطمة حبيبة باطاعة ما ستقوله لها وغرقت حبيبة من كلام فاطمة أن الخطة التى قالتها للجنى بها بعض التعديل ولكن لم تفهم الحقيقة كاملة ٠

نادت فاطمة على الجنى فحضر وقامت حبيبة بذبحة وأشارت لها فاطمة أن تدفنه بعيدا وتفصل الرأس عن الجسد وتلقى بهما فى حفرة فى وسط الحجرة وتردم على الجنى ورأسه ، ثم أمرت فاطمة حبيبة أن تقطع رقبتها ورقبت الطفلة وأن تبدلهما معا ، ولكن حبيبة صرخت : عائشة ؟

فقالت فاطمة : نعم حتى تأخذ رقبتى ويمتد الغناء فى نسلى ولا تكون خرساء أبدا ولكن حبيبة ارتجفت فقامت فاطمة فاستحمت هى والمولـودة ثم أمسـكت السكين وفصـلت رأس الطفلة عن جسدها والرقبة عن الرأس ووضعتهما جانبا ثم أشارت لحبيبة لتكمل فقامت حبيبة بفصـل رأس فاطمة عن رقبتها ثم عن صدرها ثم أبدلت الرقبتين معا ٠

وضعت حبيبة رقبة فاطمة بين رأس عائشة وصدرها وحملت جسد فاطمة ورأسها ورقبة عائشة الى الخارجة ودفنت الجميع هناك وعادت فوجدت عائشة نائمة فطبخت خلة عدس وأخذتها الى الخارجة ودلقتها فوق مكان الدفن ودقت مكانها وتدا الى قلبه مسمارا ٠

نامت حبيبة مرهقة فحلمت أن الرقاب تطير وراءها ففزعت من الحلم فوجدت عائشة تلعب وحولها الطيور من كل لون وكانت رقبة عائشة (رقبة فاطمة) كبيرة على جسد عائشة بشكل واضح ، وكان صوت فاطمة يأتى اليها : (هانت عليك العشرة يا حبيبة ؟) ، ولكن حبيبة لم ترد ، وكانت ترى كل شىء واضحا أمامها ٠

★★★

حاولت حبيبة أن تأخذ بيد عائشة التى كانت تكبر بشكل غير عادى ، ولكن عائشة كانت دائما بعيدا عنها ، وعندما ترى عائشة شلبية تجرى عليها وتتعلق بثيابها فتحملها شلبية على صدرها وتنظر اليها وتبكى ؟؟

ولكن شلبية وحبيبة تعاونتا على تربية عائشة وللحقيقة فشلتا فى تعليمها الغناء أو الخياطة ، ولكن فجأة وجدناها تحيك الأكفان وفساتين العرس ٠

وظلت حبيبة وعائشة الخياطة فى بيت فاطمة السبعة حتى أخذت حبيبة هذا البيت الذى تسكنه الآن مع الرمح وكذلك الأرض ، وهى تقول عن البيت والأرض أنهما ميراثها من زوجها ٠٠٠ هذا كلام !؟

قال حنكش : هل تزوجت حبيبة ؟

قال العم حفنى : يعنى ٠٠٠٠٠ (وأكمل العم حفنى) وفى أحد الأيام كانت عائشة قد غنت فى الأفراح وكانت قد اختفت بعد الفرح مباشرة وكانت حبيبة تلاحظ عليها الاختفاء والظهور منذ فترة طويلة ٠

ذهبت اليها حبيبة وقالت : عدت الآن ولا أريد لك الغناء وأريدك خياطة ٠

قالت عائشة : عندما يكون لى بيت ٠

وفى الصباح قامت حبيبة فلم تجد عائشة فبحثت عنها حتى وجدتها فى البيت الذى تسكنه الآن ، وعندما دخلت عليها وجدت عائشة تنظر اليها ولا تكلمها وعندما دققت حبيبة فى وجه عائشة وجدتها تنظر الى الجدران وتتكلم وكانت معها شلبية جالسة أمامها انتبهت عائشة وأمسكت بالدرابك وشرعت فى الغناء فبكت حبيبة وفهمت ٠

ومن يومها وحبيبة لا تزور عائشة وكل واحدة فى بيتها وان كانت عائشة تزورها فى أحيان بعيدة ٠

قال شكرى : وعائشة لم تتزوج يا عم حفنى ؟

لم يرد العم حفنى وقام واقفا فعرفنا أن وقتنا معه قد انتهى فانصرفنا ٠

(٧)

المشـــاعل والفوانيس حراس على أطراف الجرن اشـتعلت النيران فى رؤوسهم ، ورمت بنورها على طعام العام ورمت بظلها على الأرض ، وأكوام القمح تلال من رمال المعرفة والعرق وامتداد الحياة طوال العام من مخازن البيوت الى البطون مرورا بالطحين والنار ، والأجولة بالات مكومة على الأرض (والربـع) والقـدح والكيلة معايير اتفقوا عليها ورضوا بها فجلست تنتظر استخدامها ٠

الرجال والنساء والبنات يكنسون الأرض حول تلال القمح ، والتبن تكوم كومات عالية بعيدة عن الأرض التى يشغلهـا القمح بقليل ، فدوره بعد القمح وهو يعرف لهذا نام واستراح حتى ينتهى القمـــح ٠

المذارى والألواح ملقاة هناك بعيدا فقد انتهى العمل بهـا وانتهت مهمتها منذ فترة قصيرة ، أما النورج فنام حتى يصحو على دراس الفول والبرسيم والشعير ٠

صوامع الغلال نظرت من فوق أسطح المنازل مفتوحة يمر فيها الهواء لتغير رائحتها من قمح العام الماضى ومستعدة لاستقبال العام الجديد بقمحه الجديد ، حيث أن ما بقى من القمح القديم تم طحنه وامتدت الأيدى لصناعة المشلتت بعد الخبيز ٠

تعالى فى الجو صـــوت دق ونقش حجر الطاحونة استعدادا للعمل ٠

والبهائم نظرت الى التبن واطمأنت ولم تفكر فى الغد ولماذا تفكر وعندها طعام العام ٠

زعلت الحمير وعرفت أنها أمام عمل طويل وحمولات ستثقل ظهرهـــا ومشاوير مكررة بين البيوت والأجران ، ولكنهـــا أحست بالرضا على كثرة التبن وقالت : كل مرة يكون العمل بلا أجر واليوم العمل بأكل العام ، (وكأنها تهون على نفسها العمل) ونهقت فتتابعت الأصوات مؤيدة ولكن البعض تفل فى اتجاه الصوت ٠

انتهت حركة العمل وبدأت حركة الراحة تسرى فى العروق والأجساد المتعبة فقد مضى العمل وما بقى سهل ٠

وانطلق نقر الدرابك فى الجو ٠

انتفض الشـــبح الجالس بعيدا عن الأجران يرقب الموقف وانتبه الناس فانتبهت الحمير ورقص النخل ومال برؤوسه على بعضه وتساءل ٠

مـــــن ؟

كان الظلام قد بدأ يفرش ثوبه من بعيد على الأجران ، ولكن صوت عائشة كان يطيح بالظلام ويسلبه فؤاده ويحتل كل المساحات الممكنة والغير ممكنة ، وكان يدخل على الكائنـــــات من كل اتجاه ويخفيها ٠

تململ العم حفنى فى جلسته وقال : أهلا وسهلا .

جاء الصوت عذبا قويا :

نورت دارى ألف يا نوارة

وسترت دارى لعلعت ضحكتها

التبن دردر تانى جوه الحارة

عرقى اللى نازل تحت جدرك دمى

ضحكت عروق البطن من فرحتها

يا آكل أبويا وبنت أخويا وأمى

حتى البهايم زغرتت في الحارة

قالت عائشة : الهمة يا ناس (وكانت قد قطعت الغناء للحظة) .

زعقت شلبية : الهمة يا ناس .

قالت ست الناس : تعالى يا عائشة هذا مكانك .

امتدت طوابير العمل طوابيرا من الحمير والنساء والبنات ، أيدى الرجال تعمل والأجران تفرك وتلقى بما فيها ، والغناء متصل من عائشة الى البنات ومن البنات الى السماء ، والحمير تهز ذيولها وآذانها من الانسجام ، وتردد الغناء بين الجميع منقولا على أحبال عائشة الخياطة الى الجميع فاهتزت وتمايلت على نقر الدرابك فرقص الكون فابتسمت السكاكرة وانتظمت خطوات سير العمل والصوت مع سير الغناء .

الصوامع تبتلع الغلال حتى اكتملت واكتفت ، وامتلأت المقاطف والأجولة وتكدست فى الحجرات ، وامتلأت القفف وأخذ النجار والحلاق وخادم المسجد والمسحراتى والداية والمأذون

والخطيب وصاحب الكتاب وأبناء السبيل وخدم المضيفة وأبناء بدون أباء ونساء بدون رجال ورجال بلا حول ولا طول ، كل واحد آخذ ما يكفيه لعام وزيادة ٠

***

طلع النهار فاستبشرت الحمير خيرا ، وتنهدت النسوة والبنات ، ومدت البهائم بوزها فى فسحة من الوقت فى أكوام التبن وأكلت ما تريد ٠

وأكوام التبن كما هى وتحتاج الى أيام عمل وشغل يطلع الروح ، وتلال القمح كأنما تزداد كلما أخذنا منها ، ونقر الدرابك مستمر يروح ويجىء كالماء فى الترعة وقت الفيضان يرتفع ويزداد مع الغناء ٠

قال عمك عبد الحميد : هرم القمح كما هو خير اللهم اجعله خيرا ،
خير وبركة وعيد وعيدية والحمد لله رب الخلائق والبهائم
والبشر والمزروعات ، هذه بركة عائشة وغناءها الجميل ،
(ثم زعق عبد الحميد) أين كومة عائشة يا غجر ؟

كانت عائشة تتسلل الى المكان الذى جاءت منه تاركة خلفها نقر الدرابك مشتعلا وغناءها متصلا يتماوج حتى مطلع الفجر ، وفى ضوء النهار بحثوا عن عائشة فلم يجدوها ؟ دخل النعاس على الناس فهمدت الحركة فنامت البهائم والنساء فى الأجران والبيوت والزرائب ، والحمير رمت نفسها فى أى مكان فهى أكثر الجميع تعبا وشقاء ، والعيال بجوار أكوام التبن وتلال القمح وجدوا فسحة من الوقت فلعبوا ، فالآباء نيام والأمهات أشد تعبا فزادت

حريتهم فى اللعب أكثر ، واختفت عائشة ، واختفت شلبية ، واختفت ست الناس ·

تنهدت البهـائم والحيوانات الصـــاحى والأخرس والناطق والجماد والنبات والانسان فكل واحد له تنهيده وتسبيحه ·

وقالوا فى ضمير الجمع المكين صاحب الأسرار والأحراز :
ـ شرفتنى والله يا عائشة ·

وزقزقت العصافير ، وهدلت الحمامات ، وانطلقت آيات الشكر من المغنين فحفروا فى وجدان الكون اسم عائشة وسرى الغناء فى الناس وبقى صوت الدرابك يتردد فى دروب السكاكرة ·

(٨)

انتظم نقر الدرابك فى القرية حتى أنك كنت تحس أنه لك وحدك .

وظن كل واحد منهم أنه يسمع ذلك من تأثير ما قاله العم حفنى ، فلم يسأل أحد منهم الآخر عما يســـمع مخافة أن يتهم بالخوف .

ارتفع صوت الغناء فتوقف القمر فى سمت السماء ، تمايلت رؤوس النخيل ، صمت الكلام ولم يســمع أى صــوت للحمير أو البهائم ـ ولا الكلاب .

أصــغت الحشرات والديدان فى شقوق الأرض حتى العتة توقفت ، وكذلك قراضات الخشب عن العمل وعن السعى ولكنها كانت تستمع وتشرب الغناء .

كانت هناك أشياء أخرى مستمرة فى العمل ولكن بلا صوت ، فقد استمرت حبوب اللقاح فى السقوط برضاها على مياسم الأزهار

الخنثى والمؤنثة ، كما استمرت الأزهار فى نثر الأريج وحبوب اللقاح فى كل مكان ، كما هاجت الطيـور والحيوانات والديدان وتسافدت ولكن كانت هذه المرة بلا صوت أو تعبير عن الحرقة ، وكذلك تقلبت النساء فاصطدمن بالرجال فعدل كل واحد منهم من نفسه على مقاس الآخر وراحته وركبوا وقالوا فى أسرارهم : عمود الشقاء يأتى على الهوى جميلا كأنه عمود الريق أو الغفلة غنت الحياة باستمرارها وسعدت بهم ٠

قفزت الأسماك فى ضوء القمر ثم غطست تحت الماء فبز الجميع كفان يظهران من تحت ســـطح الماء يحملان كمية من الأسماك فامتدت يد شلبية وأخذت السمك ووضعته فى حجرها وسارت تتبع الصوت الذى يقول لها تعال ٠

***

مرقت شلبية من الباب المقفل ووضعت الأسماك فى الطشت ووضعت الطشت أمام عائشـة وخرجت وأقفلت البـاب ، فقالت عائشة :

ـ السر ٠٠ يا صاحب السر ٠٠٠٠٠ مرحبـا بكم من بلادكم البعيدة حتى هنا ، حملتكم أيدى الرحمة وعبرت بكم من تحت الأرض والقناطر والسدود لتصلوا الى ، كل ميسر لما خلق له لك الحمد ولك الشكر يا صـاحب السر ، كيف حال من عندكم ومن مررتم بهم ؟ ٠

وكيف حال من كان ومن دام هناك ؟

هل من رسائل لى أو حوائج لى مع أحد منكم ؟

قال قرموط السمك : أى حوائج معى ؟

قالت له : حسابك عسير ، ربما دفنته فى الطين ·

قال : كيف لى ؟ أنا مأمور بالحضـــور وما تأخرت ، ومكلف أنا بالطعـام وليس لى يد فيه ، ومحمول على يد رحيمة حتى أمامك ولا أرى لى شأن معكم ، وسعيد بأن أصب نهاية رحلتى عندك ، فكيف لى : ؟؟؟

قال المشط الأحمر : أما أنا فعندى من الرسائل الكثير ·

عند مرورنا فى زرافات تحت الأرض فى انفاق المياه على أكف التوزيع ، كان مرورنا من تحت الخارجة ـ هنا اهتزت عائشـــة ـ فقالوالنا يا من ستذهبون عند عائشـــة قولوا لها : اذكرينا دائما واسمعينا صوتك نريد أن يفرش السكاكرة ، نريد أن نسمع شدوها الأصيل الأثيل يمتد من الرؤوس الى الرؤوس الى القلوب الى العقول الى الدماء قربانا وقربات وقرابين لنا ميعاد ولنا ولكم معاد ·

النخيل توقف عن الثمر فى أرض الخارجة يا عائشة ، والبلح هو لبنك وغذاءك من أول الأمر ··· فلماذا الهجر ؟

على كل حال يا عائشة هى موجودة وكبرت فاستعدى ·

قالت عائشة فزعة : من هى ؟

قال المشط الأحمر : لم تكمل وسكتت من الزعل ·

قالت عائشة بضيق : هل من رسائل أخرى ؟

سمعت عائشة تنهدات من مشط آخر وقال : سيصلون اليك قريبا ····· تسليم وتسلم ·

قالت : من ؟

قــال : قالوا لى قل لها قولى لهم مرحبا ·

قالت : مرحبـا ·

أحست عائشة بأن هناك شئ ما يلوح فى الأفق فدمعت عيناها وهمهمت وتمتمت ·

قال مشط صغير : الرحمة بنا والرحمة على من أتى منا واجبة ·
قالت عائشة : سأترككم تنامون أولا ·

ثم مسحت بيدها على الطشت فنامت الأسماك ونادت فحملت شلبية الطشت وذهبت لشى السمك فى الصاجة ·

وتنـاولت درابكهـا ونقرت وتنهدت ، وهنا فى تلك اللحظة بالذات تأكدت النبوءة لكل واحد منهم أن نقر الدرابك يأتى من حيطان السكاكرة وأن عائشة قائمة على النقر والغناء لأمر ما ·

***

اتجهت أقدامهم اليها ووجدوا الباب مغلقا فوقفوا أمام الباب المغلق ولكن شلبية دخلت أمامهم من الباب المغلق مارقة وها هى تخرج مرة أخرى حاملة معها السمك المشوى والعيش الطرى ، وقبل أن تدخل نظرت اليهم ، ونظر كل واحد منهم فى وجه صاحبه ولم يبح ·

لكن السؤال ظل يلح عليهم عندما شاهدوا السمك (من أين الآن ؟) ·

كان القمر قد ترك وسـط السماء واستدار يكمل رحلته فضحكت النجوم وأكملت لمعانها وطقطقت النار فى الصاجة والتفت بثوبها الأبيض ونامت ٠

جرت قطة من أمامهم وقفزت وسط باب عائشة واختفت فى خشب الباب ٠

نزلت بومة كالسهم والتقطت من طابيـة الحطب فأرا كبيرا وطارت الى أعلى ٠

مرت خفافيش كثيرة واختفت ٠

جرى أرنب خلف أرنبة ، ونب تيس خلف ماعز وطاردها على سطح منزل ما ٠

ونزل طل الندى فى الفجر وضرب بسـيفه كل شىء فبكت الأشياء دموعا حتى ملابسهم تبللت بالدموع ، فى نفس اللحظة فتح باب عائشة وقالت شلبية :

ــ مرحبـا ٠

(٩)

تجاورت على الشاطىء صفصافة وشجرة شعر البنت فمرت من تحتهما مياه الترعة ، ورغم قوة الصفصافة ووقوفها منتصبة ، وهى ذات أوراق أعرض من أوراق شعر البنت ، والا أنك تحس أنها تخفى أسرارا ، فكما أن أوراقها خضراء من ناحية ووبرية من الجهة الأخرى فهى أيضا لها مظهر يختلف عن مخبرها ٠

ورغم تجاورها مع شعر البنت فلم تأخذ منها شيئا ، ورغم أن الناس تخلط بينهما ، الا أن لكل تميزه ٠

شجرة شعر البنت حزينة تهدل شعرها على الماء فى شلالات متتالية كشال امرأة عجوز حزينة على القبر ، فى لحظة من وجع الظهر من الانحناء ولامست أطراف شعر البنت وجه المياه فاقشعرت وتحبب سطحها ونفرت حلمات ثدى المياه وأحست بالحنين يسرى فى أوصالها ، عند ذلك خطت (شلبية حنا) على الأرض تسعة خطوط فوقها سبعة خطوط رأسية ثم وضعت فى كل تقاطع نواة جافة من نوى البلح وقالت :

اكتمل السر بالعشرة ولابد للسر من الخروج ٠

لم تكن شلبية حنا ترى القادمين من خلفها ولكنها كانت تحس بهم من أول خروجهم من بيوتهم واتجاههم اليها ، وكانت حذرة أن تتكلم معهم وأحبت فى ضميرها أن تأتى ست الناس لحمايتها وأن كانت لا تستريح لها ٠

نظرت شلبية ناحية الشمس فوجدت أن الوقت مازال مبكرا وأن الشمس تتمطع بعد افاقتها من نومها فادركت أنه لابد أن يقع المحظور فهتفت فى سرها :

ــ اعذرينى يا عائشة ٠

جلس شكرى بجوارها من جهة الشمال وحنكش من جهة اليمين وسعيد المتوكل أمامها ولم يتكلم أحد منهم فقالت :

ــ خيرا ان شاء الله ؟

قال حنكش : طبعا أنت تعرفين الموضوع والقصد ، واذا كان ما قالته عائشة ولا مؤاخذة صحيح يبقى العتب على الفهم ، واذا كان غير صحيح فما يحدث لنا ليس له معنى ؟ ثم ما معنى الكلام الغريب الذى نسمعه ؟ نحن نعرف أنه ليس سحرا لأن ما مع عائشة أقوى من السحر ولانستطيع الوصول اليه ، كما أنها شديدة جدا ، والواحد منا تصيبه رجفة قوية وخوفا ويحس كأن أحدا يسيطر عليه ٠٠٠ ثم هل هى قريبة جنونة أو أم سعيد ؟ أو هى من عجيبة أخرى ؟

قالت شلبية : عائشة ٠٠٠٠ آه عائشة آه عليها ومنها وعلى ما مر عليها من أهوال ٠٠٠٠ من منكم يعرف عائشة ؟

عائشة حكت لى وقالت كل حكاياتها وهى حكايات لم يعرفها أحد ٠

قال شكرى : أهــــوال ؟

قالت شلبية : كانت عائشة الخياطة وهى صغيرة مع حبيبة طوال الوقت وليس معهما أحد أبدا ، وكان الجنى المكلف بالطعام والشراب والملبس والمأكل يعلم عائشة الغناء ، وكنت ألف وأدور حول البيت فأسمع عائشة تغنى :

بيبى يا بلح بيبى

وانت صغير وحبيبى

فيهتز النخل ويتراقص البلح ويطيب فى شماريخه ، فكنت أطمئن عليها وأعود .

وفى يوم من الأيام لم أسمع غنــــاءها فقلت لابد فى الأمر شيىء ،فدفعت الباب ودخلت فلم أجد حبيبة أو عائشة فى البيت فقلت : أين ذهبت حبيبة لابد أنها أخذت عائشة معها ، وأنا أعرف أن عائشــة لا تخرج من البيت ؟ كما أن عائشــة أصبحت صبية كبيرة ، وهى تكبر كعود القصب وليس كحبة القمح لهذا صارت جميلة بسرعة وسبقت الأيام فى الجرى والسرعة ، وتذكرت أنها كانت تنظر الى وتسرح كلما مررت من أمامها وكان كلامى قليل معها فأنا أعرف أنها لا تتكلم كثيرا ولا تكلم (الا أنا) .

هل يمكن أن تكون عائشة نائمة ؟ أين حبيبة اذن ؟

فقلت أبحث عنهما فى الدار والدار هى دار فاطمة السبعة وأنا أعرفها ، وعندما هممت بالدخول الى داخل الدار وجدت عائشة خارجة لى من الحائط البحرى .... !!! صــــار عرقى مرقى يجرى على الأرض ونفسى مكروش ولم أتمالك نفسى فأخذتها فى حضنى (يا حبيبتى يا بنتى) .

قالت عائشة : كنت أحب أن أكلمك من زمان ، ولكن تبتعدين عنى ، ولا أعرف ما يشدنى اليك ·

بكيت وخفت ان أبوح لها بسرى وسرها ، وكلما نظرت اليها أجدنى ضعيفة وأننى لا أقوى على السكوت فأقوم وأسلم عليها فتتعجب وتقول : لم نتكلم ؟

فأقول لها : مادمت بخير فأنا بخير ·

وذهبت الى النخلة التى ولدت تحتها عائشة ونمت فجاء وقال لى : الليلة ··· الليلة أكملت عائشة وجودها فى ضمير السكاكرة ، وغدا تغنى فى الأجران ليتجلى أمام الجميع وجودها اللا متناهى ·

وذهبنا بعد أيام وانتظرنا عائشة فى أول الأمر ولأول مرة تغنى فيها للناس فى الجرن ، وعرف الناس عائشة ·

فاطمها حنكش : الصبر··· الصبر يا خالة شلبية قلتى أن عائشة ولدت تحت النخلة التى تعرفينها أنت ، وأنك ذهبت الى النخلة وكيت وكيت ·· فهل معنى هذا أنك أم عائشة ؟

قال سعيد المتوكل : أعوذ بالله من غضب الله ، هل كل واحدة قالت لوحدة يا بنتى بقت بنتها بصحيح ؟

انتفض شكرى : اسمع يا سعيد (ثم التفت الى شلبية) يا خالة شلبية سأكون صريحا، نأخذ الدور من الأول أو من الأخر·· عائشة الخياطة ابنة فاطمة السبعة ، وفاطمة تركتها لحبيبة كل هذا جميل ؟

هزت شلبية رأسها : نعم ·

أكمل شكرى : عائشـة متزوجـة ؟ من زوجها ؟ من اشترى لها البيت ؟

قال سعيد : ثم كيف تكلم الجن الأحمر والأزرق واستغفر الله العظيم ؟.

ما اسم أبيها ؟

قالت شلبية : ما اسم عثمان النجار والعم حفنى وسـت الناس وحنونـه ؟

قامت شلبية ودخلت حقل الذرة بجـوار الترعة ثم عادت وجلست بجوار الكافـورة على رأس الغيط فذهب اليها حنكش وشكرى وسعيد المتوكل فقالت :

الأمر لله ولمن له الأمر ، وعائشة الخياطة ولدت خرسـاء ، وأراد السميع العليم أن تأخذ رقبة فاطمة السبعة بارادة فاطمة ٠

قال حنكش : هل ما بين البنت وأمها حساب أو جمايل ٠

قالت شلبية : فاطمة السبعة لم تنجب بناتا يتكلمون والذى ولدته كان ذكرا أخرسا ومات وأنا دفنته بيدى فى حجرة أم سعيد وهو الذى كان يظهر لحنونة تحت الماء ٠

قال شكرى : نعم نعم يعنى عائشة ليست بنت فاطمة السبعة ؟

قالت شلبية : نعم (وبكت) ٠

قال حنكش : الدنيا ضلمة عتمة مش فاهم ٠

قال سعيد المتوكل : اذا كنت أنت دفنـتى ابن فاطمة فلابـد أنك تعرفين من أم عائشة ؟ ومن أبيها ؟

قالت شلبية : طبعا أعرف

هتفوا فى وجه الغيب الذى سينكشف : من ؟؟؟

قالت شلبية : أنــا ·

بهت الجميع وخيم فوقهم صمت ثقيل ودق أوتاده وظللهم بخيمة عدم الفهم الا سعيد المتوكل الذى ظل همجيا نقيا فقال :

خالــة شلبيــة بالراحة ···· فاطمة الســبعة ولدت ذكرا ومات ···· صــح ·

قالت شلبية بصبر بالغ : صح ·

قال سعيد : وأنت أخذت الولد ودفنتيه فى حجرة أم سعيد ·

قالت : كل هذا صحيح ·

أكمل سعيد : الى هنا والكلام لا غبار عليه ··· ندخل الى المهم أين كانت عائشة ؟

قالت شلبية : عائشة كانت حتة لحمة حمراء فى حجرى وكان دمى يشر على الأرض ·

قام حنكش زاعقا : لا تاخذينا فى عشرة بلدى وتضحكين علينــا ، أقسم بالله العظيم أكون قتيلك ، أنا لا أحب شغل الهبل ، عائشة أين أبيها ومن يكون ؟

قالت : الصبر (وأكملت) كنت ساعتها فى الهيش عند الخارجة ، وعندما جاءنى الطلق تحت النخلة التى بت بجوارها سبعة أيام بعيدة عن العيون المتربصة فى السكاكرة وكنت أعيش على البلح وفى حالة الطلق كنت أرتعش وأحس أن الدنيــا كلها تخرج منى فعضضت على جذع النخلة بأســنانى وبكل قوة فى ، وكنت أسف التراب حتى خرجت عائشة فأحسست أننى انتهيت ورأيته واقفا أمامى وقال لى :

مات ابن فاطمة السبعة ضعى البنت مكانه ، وعندما سألته والمولـود ؟ قال انه ميت خذيه وادفنيه ، وستعطى فاطمة البنت رقبتها وستملك العالمين بصوتها وستمتد ، فصرخت فيه كبدى ·· ولكنه اختفى ، ووجدتنى أدخل الى بيت فاطمة السبعة وكنت أخاف أن أجد حبيبة ولكننى لم أجدها فوضعت عائشة مكان المولود وأخذت المولد الميت وكانت فاطمة فى سابع نومة وسمعت صوته ينادينى وتبعته الى السكاكرة ودفنت الولد بحجرة أم سعيد وقلت له : لم أجد حبيبة ·

قال : سحبتها بعيدا ·

قلت : وابنـــتى ؟

قال : ستكونين بجوارها وستقولين حكايتها ولكن هذا اذا سارت الأمور كما نريد، ولن يصدق أحد حكايتك ويتهمونك بالجنون فلا تبوحى بسرك ، أما من جهتى فسأعمل على خلط حكايتها بحكايات أخرى مشابهة لها حتى تظل حكايتك غير مصدقة فتعيش عائشة ·

قال سعيد المتوكل : كل حكايـاتك يا خالـة شـلبية لا نسـتطيع تكذيبها لأننا لم نكن معكم ، وربما لو حكيتى لنا الأهوال التى رأتها عائشة لعرفنا منها شيئا يؤكد كلامك ·

قال شكرى وحنكش : جايز ···· والا سندخل فى متاهه لا يعلم مداها الا الله ·

قالت شلبية : عائشـــة كانت تذهب الى زيـارات بعيدة ، لتتعلم أصول الغناء ، وأنا عرفت الحكاية منها ، فبعد زيارتى لها

فى بيت فاطمة السبعة (لم تكن هذه هى الزيارة الأولى) ولم تكن حبيبة موجودة هناك ، وأخذت رجلى على هناك وصـار المشوار اليها خفيفا على القلب ، كل هذا قبل أن تغنى فى الجرن ، زرتها فى أحد الأيام وأخذنا الكلام وكانت حبيبة نائمة وكنت أنظر الى حجرى وعائشة تتكلم حتى لا أنظر اليها فيزداد شوقى و ··· وسرحت فانقطع صوت عائشة عن الغناء بعد أن قالت كلاما غير مفهوم وكأنها تكلم غيرى وخفت أن أصـدق ما أشم وأعرف من الأصوات ، وعنـدما رفعت رأسى لم أجد عائشة !!! أخذنى الخوف وكدت أصرخ ولكن شيئا ثقيلا هدنى ، ورمى على حبيبة النوم الثقيل ، وكانت جدران البيت تقترب منى وتكاد تطبق على أنفاسى ، لا أدرى كم من الوقت مضى واذا بصوت نقر الدرابك يأتينى من بعيد وصوت زفة وشخاليل كأنه فرح ودخلت عائشة من الحائط البحرى ·

ـــ أهلا يا قلبى (وانتفضت واقفة وأخذتها فى حضنى) ·

كانت مرهقة وفرحة فقلت لها : أين كنت يا عين أمك ؟

وأحسست بغلط شديد والسؤال يخرج منى ولكن عائشة ضحكت وقالت : كنت أتعلم الغناء ، عرفت أن ما تقوله هو الصدق وتصورته ولكنه كان غير ذلك ·

قالت عائشة : هم يعرفونك عز المعرفة وأوصـونى بك وبخالتى حنونه وعثمان النجار وست الناس والعم حفنى ، ··· وأنا أنزل اليهم وقت تعليمى كما يريـدون ، وقد تـدرجت فى المعـارف ورأيت أهـل الدار الآخرة وهـم يتركون أكفانهم وينزلون تحت الأرض الى البحار البعيدة ويسـوقون لنـا

الأسماك ويعبرون بها من تحت الترع والقناطر والسدود ويطلقونها فى مياهنا القليلة وقد قلت لهم : لى حق فى السمك ·

قالوا : سيصل اليك عن طريق أقرب الناس لك ، فعندما تصحو حبيبة سأرسلها لتحضر السمك ·

قلت لها : لا أنا المكلفة باحضار السمك ·

غرقت عائشة فى عينى ودخلت فى حضنى وشدت على وسطى يديها كأنها تكاد تدخل فى بطنى ·

قلت لها : سلامتك يا عائشة ·

فتنهدت وبكت وقالت : أنا أحبك والله يا شلبية وآه لو تعرفين ما لاقيته فى أسفارى تحت الأرض (وكنت أفهم حزنها) ولكن لم أكن فاهمة شيئا الا بعد أن انتهيت من التعلم ، وآه لو تعرفين المسافات التى قطعتها والبلاد والأماكن التى سافرت اليها وكان صوتى يتغير كل فترة حتى أصبحت لا أذكر صوتى الأول ، طريق طويل وبلاد كثيرة كأنها خلقت لى ، آه عندما أخذنى أول مرة وحملنى على أكتافه وأنا فرحانة بالفرجة ودخل بى الى جناين البهجة والموز والفاكهة وما لا أعرف فأخذت أذوق من كل الثمار ثم وضعنى تحت شجرة وغاب عنى ، ووجدت نفسى وحيدة ولا أحد حولى فناديت عليه فلم أجده ، ظهر لى ديك جميل الصوت حسن الشكل أخضر الريش أحمر العرف بجناحين بلون الياقوت وله رائحة العنبر ورقبته طويلة وقال لى : هو لن يسمعك ·· واذا أردت له أن يسمعك فافعلى مثلى ، وتقول عائشة : آخذ

الديك فى الصياح وأنا أقلده حتى تصبب العرق منى والديك مستمر فى الصياح وأنا ارفع الصوت عاليا وأقلد وأجود حتى سكت الديك واختفى ، وفى نفس الوقت نزلت على عصافير وطيور جميلة وقالوا لى : لماذا الصياح ؟ النغم الحلو الجميل يأتى من الصوت الرخيم ويسمع فى كل مكان ، فصرت أقلد الطيور وهى تتنوع أصواتها وتتغير وتختلف وأنا أفعل مثلهم لعله يأتى ، فلم يكن أمامى الا أن أفعل ما يعيده الى ، وكنت أقلد كل طائر على حدة ، ثم انتظمت الطيور فى جوقة كبيرة من الغناء وأنا معهم ما بين التغريد والترديد والتطويب والترخيم فاذا به يحملنى فانتفض ويعود بى بعد أن ظهر لى ٠

وتكررت الرحلات ولكن يا خالة شلبية فى كل مرة لها أشكال وأشكال ها بين عبور الأنهار واجتياز المسافات ، فمثلا كنا نعبر نهرا وكنت على كتف جاموسة فقالت الجاموسة : وماذا تعرف هذه عن الغناء ؟ فتركنى فى النهر واختفى ، فأخذت الأبقار والجواميس تخور خوارا عميقا وترد عليها الأبقار والجواميس الأخرى وأنا أقلد ، الا أن بقرة كانت عيونها أشد جمالا فأشرت ناحيتها ومسحت على عينى فضحكت ، وصار يومى كله فى التقليد ونحن ما بين السباحة فى النهر والخروج الى الشاطىء وأثناء سباحتى فى أحدى المرات أحسست كاننى محمولة على شىء ينزل بى تحت سطح الماء ، فأخذت أشهق ويدخل الماء الى صدرى فصرخت فأخرجنى الى الهواء فأخذت نفسا عميقا فنزل بى الى مسافة أعمق وهكذا كلما أخذت نفسا عميقا نزلت مسافة أعمق ، وطالت فترة التعلم فى النهر لأسبوع حتى استطعت أن أرى وأتفرج على كل ما تحت الماء وأنا مفتحة العينين ، وهناك أشياء لا يحلم بها المخلوق ولا خطرت فى أمنيات المحرومين وفى آخر يوم من اللعب بالماء

والتراب والهواء خرجت من الماء ولبست ملابسى فوجدت تحت شجرة كبيرة على البعد حمارا فركبته وسرت به قليلا فنهق فوضعت اصبعى فى أذنى فجرى بى والقانى أرضا .... صحوت بعد فترة لا أعرف كم ، فوجدتنى فى الصحراء والشمس فوق رأسى تماما والعرق ينزل من كل جسدى كأنه المطر ، فقمت وظللت سائرة فى ناحية وخفت فعدت الى الناحية الأخرى وكذا عدة أشواط حتى أحسست بالجوع والظمأ ، وعصافير بطنى زقزقت فتهيأ لى أننى أرى شجرة كبيرة بعيدة عنى فسرت ناحيتها وكانت المسافة كبيرة حتى وصلت اليها وجلست تحتها أمسح عرقى وصعب على حالى فبكيت ونمت تحت الشجرة وصحوت من النوم فوجدت بين يدى طبلة وفى حضنى درابك فرحت بها وأنا لا أعرف النقر أو الطبل ، فأخذت أنقر فخرج النقر أهبلا ، أدق هنا مرة وهنا مرة دون الوصول الى انتظام ، وفجأة وجدت بجوارى قردا ، فخفت منه وحاولت النقر ولكنه أشار الى وأخذ الطبلة منى وأخذ يدق عليها وأنا أقلده وكانت الأصوات جميلة وتكاد تلامس شيئا ما بداخلى حتى تعالى النغم وهو يضرب بقوة فلم أتمالك نفسى فقمت ورقصت وجن جنون القرد فرمى الطبلة وأخذ يرقص والتقطها وأخذت أدق عليها وأعيد عليه أنغامه والعزف يشد على عصب يدى حتى وقع القرد من التعب ثم اختفى وأنا مازلت أدق ولكن بعد فترة عرفت أن القرد لن يرجع فماذا أفعل الآن ؟

أخذت درابكى يا أمه شلبية وظللت أداعبها حتى انطلق منى النغم هكذا ولا أعرف من أين جاءنى ....

يا غايب السيرة ، صوتك ملوش سيرة .
غايب وغبت كتير ، أجل بقى المشاوير

وارجع بلاش حيرة ، والا الغياب ح يطول ؟

وكان صوت عائشة حزينا ويدخل الى القلب فيشرخه ويدلدله فى جوف البطن فتسمع دق قلبك فى بطنك ، والله يا أولادى آنا كنت حاسه أن حيلى انهد ولا اقدر أقوم من مكانى وكنت فى ساعات كثيرة أذهب الى عائشة الخياطة لتغنى لى وكنت أفهم فى كثير من الحالات معنى الكلام ، وأحس برغبتى فى البكاء ٠

ولكن الذى كان يطمئننى انه كان يجيىء ويسأل عنها ٠

وفى أحد المرات قلت له سأقول لها كل شىء قال : سيتهمونك بالجنون ٠

قال حنكش : والله عنده حق ، اذا كان كل هذا قد حدث من أصله، واذا لم يحدث فلله الأمر قال شكرى أنا ساكت من الصبح لكن الحكاية زادت عن حدها ولا نفهم أى شىء المهم من الذى وقف أمامك ؟

قالت شلبية : الرجل صاحب الدروع أو زارع القرية أو سليمان الحداد ماذا يهمك سواء كان هو أو غيره ومن قال لك أنهم ليسوا رجلا واحدا وكلهم والد عائشة ؟

قال شكرى : لا ٠٠٠ ملعون أبو السكاكرة ، عقلى يا ناس ، ارحمينى يا شيخة كفاية ، كلام لا يدخل العقل ولا يدخل حتى ٠٠ فى أى مكان ، كلام ببلاش والد عائشة هو زارع القرية يعنى عمره مليون سنة مثلا ؟

قالت شلبية : هذه الأيام عندكم ما لنا نحن وأيامكم ثم ما عمر العم حفنى أو ست الناس ؟

قال حنكش : كفاية يا شكرى ، المهم ان زارع القرية هو والد عائشة ٠

قالت شلبية : السماح يا أهل السماح ٠

لم ترد شلبية على كل الكلام الذى قيل ونظرت بعيدا وقامت فزعة وصرخت وجرت فجروا خلفها فسقطت شجرة الكافور خلفها بكل ثقلها على الأرض مكان جلوسهم ٠

صرخت شلبية : الرحمة الرحمة ٠

جرى شكرى وحنكش ناحية السكاكرة من الخوف فى عز الظهر بينما تسمر سعيد المتوكل فى مكانه فرأى الهول ٠٠٠٠٠ رأى شجرة الكافور تقف من مكان سقوطها كما كانت وكأنها لم تسقط أبدا ، فسقط مغشيا عليه ٠

دخلت شلبية الى حقل الذرة ثم عادت وأخذت تنادى على سعيد المتوكل وتدلك له صدره وتشد أذنيه حتى أفاق وكان يرتعد من الخوف وشلبية توشوشه فى أذنيه (الماء ٠٠٠ التراب ٠٠٠ النسيان ٠٠٠ الانسان ٠٠٠ النسيان كتب على كل حى) ولكن ظلت شلبية تقول وتعيد وأخذت سعيد المتوكل الى أول طريق السكاكرة ثم تركته وعادت الى مكانها تحت شجرة الصفصاف بجوار شعر البنت ورمت حفنات من التراب فى الماء وقالت : النسيان مصير كل انسان ٠٠٠ النسيان ٠

ولكن ظلت بعض ذرات من التراب عالقة بالشاطىء على الضفة الملاصقة لشعر البنت ، تأملت شلبية ذرات التراب العالقة وخافت وتأكدت أن السر سيعرف منه الشىء الكثير فدمعت عيناها وقالت :

هذا هو حال الدنيا ٠

ـ أنت كاذب وابن كلب وطول عمرك بياع كلام وفضايح ٠

ـ يا بنى آدم أنا شفتها بعينى ٠

ـ يا حبيبى لنا أرض ذرة هناك ، وأنا كنت من ساعة هناك وكل شيء فى هذا الكلام حصل حق حقانى ٠

ـ تكلم يا ٠٠٠ يا شكرى (قال حنكش) ٠

قال شكرى : كلام حنكش صح ومضبوط ٠

زعق عباس : شكرى أنت أهبل وصحيح عقلك خفيف لكن أعقـل شوية من حنكش ، واذا كان كلام حنكش صحيح فيبقى عليه العوض ومنه العوض فيكم وفى النـاس ٠

قال شكرى محاولا ان يؤكد كلامه : يا شيخ عباس الكلام صحيح ، وأنا على رأى عمك عبد الحميد الحصرى (رأيتها رؤية العين) شجرة الكافور وقعت من طولها ولولا أن شلبية قامت تجرى

كان زماننا مع الأموات ، لكن ربنا شاء ووفر على أهلنا أن يسمعوا كلمة (شكر الله سعيكم) ٠

قال عباس : حتى لو أنا أهبل فلا يمكن أبدا أنسى أننى من ساعتين كنت قاعد تحتها ؟

قال حنكش : أنا وشكرى وسعيد المتوكل كنا هناك وجريت أنا وشكرى ولا نعرف ماذا حدث لسعيد المتوكل ؟ ربما بالقليل مات وكنت عايز أسأله ٠

قال عباس : طيب والكلام التانى ٠٠٠٠ هل متأكد أن عائشة ابنة شلبيـــة ؟

قال حنكش : والله هذا ما قالته شلبيه ٠

قال عباس : بنت مين يعنى ؟

قال شكرى : عند هذا السؤال وقعت الكافورة ٠

قال عباس : عائشـــة والكافورة !!! ولا فى الأحلام والله النسوان لغز كبير خالص (وهمس لنفسه) كل هذا العمر ولا كلمة ولا خبر يا شلبية ؟

قال حنكش : يا عم عبـــاس أنت مالك ومال خالة شلبية ؟ الست شلبية صعبة خالص ولها أفعـــال بسم الله الرحمن الرحيم عليها ، وهى كانت عند عائشة الخياطة ودخلت من الباب المغلق وخرجت من الباب المغلق أيضا ٠

قال شكرى : هى والقطة ٠

قال عباس بهدوء : معقول المصائب كلها فى يوم واحد ، شلبية والكافورة ، والقطة وعائشة واضــح ان الكلام صحيح وأنا أعرف حكاية القطـة ٠

قال حنكش : ياعم الشيخ عباس ريح بالك وابعت ولدك عبد المقصود لسعيد المتوكل ليقول لنا ان كان مات أم لا ؟

كما أن سعيد لا يعرف أننا هنا وتسأله بنفسك أمامنا وهو شاهدنا الوحيــد ٠

قام عباس ودخل داره ونادى على عبد المقصــود وقال له كلاما ظهر منه بعضه (ياعبده لا تقل له أن أحدا عندنا ، وأنا عايزه ضرورى) ٠

جلس عباس ودخلت زوجته بالشاى ــ الدور الثانى : مساء الخير ٠

ــ يسعد مساكم يا خالة ٠

ــ أنا سمعت زعيقــكم على الكافورة ، والكافورة موجودة ، ويمكن واحد له غرض وصل هذا الكلام بقصد ، لانه بعد أن جاء عمك عباس من الغيط قلت فى عقل بالى أروح الغيط أجيب ذرة ندقــه للعشــاء ٠

زعق عباس ــ ياولية الكافورة واقفة على حيلها ؟

ــ أيوه نعــم طبعــا ٠

انتبه عباس فزعق فيها : قاعدة وراء الباب وتسمعى كلامنا ؟ يا بنت الكلب ·

خافت وقامت تجرى : لا والله العظيم صوتكم عالى ·

خرجت زوجة عمك عبـاس وهم يشربون الشـاى والخوف يزعزع كيانها من غضب عمك عباس فيمكن له أن يقل مقامها أمام الناس أو بأقل القليل تلحقها فردة بلغة أو شتائم لا حصر لها مع كثير مع اللعنات المصبوبة على أهلها ·

ذهبت عينا عمك عباس الى الكافورة ولم يجد سببا واحدا لسقوطها وهى بهذا الحجم وتلك القوة وخاصة أنه رآها اليوم بكل جلالها واقفة شـامخة ، فكيف يحدث ذلك ؟ ثم أن تأكيد شكرى وحنكش هو السبب الرئيسى فى عدم التصـديق حتى لو رأى بعينيـه · اذن لابد أن فى الأمر ملعوبـا ؟ ثم كيف يستشهدون بسعيد المتوكل وهو ولد صادق وليس له فى أمور الكذب ثم الأدهى والأمر شلبية كيف اخفت عنه كل هذه الأسرار ؟ ثم تكشفها الآن بلا سبب ؟

ودخل سعيد المتوكل مريضا ضعيفا وقال بصوت ضعيف : السلا ··· ثم استدار عائدا ولم يكمل السلام عندما رأى حنكش وشكرى ، ولكن عباس أمسكه من ملابسه ·

ــ تعال يا سعيد ··· أنت فى بيتى يا جـدع ·

قال سعيد : لا يمكن أن أكون فى مكان فيه شكرى وحنكش والى حصل حصل من تحت رأسهم ·

قال عباس : اقعد الله يهديك ··· يا سيدى صبرك بالله ، واذا كان لا يعجبك وجودهم نطردهم ، البيت بيتك يا أخى ·

قال سعيد وهو مازال واقفا : أطردهـم ·

قال عباس : اقعد الله يهديك ··· صل على النبى ·

جلس سعيد المتوكل وأعطى ظهره لحنكش وشكرى ·

قال شكرى : حمدا لله على سلامتك يا سعده ·

قال سعيد : لن أرد عليك وابعد عنى أحسن لك ·

قال حنكش : ماذا أخذنا من وجهك حتى تعطينا قفاك ؟ ثم احنـا مالنا ومالك ، جرينا يا أخى ولا نعرف هل جريت أنت أم لا ؟ وأنت رجل نصف لبة ، وخرع والخوف مكلبش فيك ·

قال سعيد : لم لسانك يا أعور العين والقلب ·

قال عباس : يا سعيد وحياة النبى يا شيخ الكافورة وقعت ؟

قال سعيد : اللهم صلى على النبى ، الكافورة وقعت وكسرت أرض الذرة ·

هتف شكرى وحنكش : الحمد لله ·

قال سعيد : مبسوطين قوى وأنتم لا تعرفان ما حدث ·

قال عباس : يا سعيد يا حبيبى الكافورة وقفة فى الغيط أنا شفتها النهارده ٠

قال سعيد : صح الكافورة واقفة فى مكانها ٠

قال شكرى : أنت أهبل الكافورة واقعة قدامك وقدامنا كلنا ٠

قال سعيد : حصل ويمين المصحف ٠

قال حنكش : وله بوشين ٠

قال سعيد : الله يسامحك يا حنكش ٠

قال عباس : أنا عايز أفهم الكافورة وقعت ٠

قال سعيد : الكافورة وقعت وبعدين ٠

قال شكرى : الحمد لله ٠

قال سعيد مكملا كلامه : وبعدين وقفت ٠

قال شكرى : لا الحالة صعبة الولد تعبان ، مالك يا سعيد ؟

قال سعيد المتوكل (وكان صوته يأتى من بلاد بعيدة وينظر أمامه مباشرة وكأنه لا يرى) ٠

ـ زعقت خالتك شلبية وجريت فجرى حنكش وشكرى وأنا تسمرت فى مكانى ورأيت شجرة الكافور وهى تقـع على الأرض

هبدا مرة واحدة وكنت حاسس أننى أغرق فى ترعة مليانة ماء ساقع وكنت أرى أيدى كثيرة تسند أعشاش العصافير التى فى وسط الكافورة ، وكان يخرج ضوء شديد من وسط الكافورة وكان واضحا فى عز الظهر وأسمع كلاما وهمهمات وكانت خالتك شلبية تبكى وتتكلم وأنا لا أسمع أى شيىء٠اللحظة التى كنت سأفيق فيها وجدت الكافورة تقف كما كانت وغيطا الذرة عاد كما كان فلم أحس بنفسى الا وأنا بالدار وأقوم من كابوس لأقع فى كابوس فحلفت بالله العظيم ألا أتكلم مع مخلوق فى هذا الموضوع أبدا حتى لا يستهزى بك كل ابن كلب ويعتبرك كذابا، والأغرب من هذا أننا قابلنا خالتك شلبية بعد خروجنا من عند عائشة الخياطة وعائشة لم تحك لنا أى شيىء مما قالته خالتك شلبية ؟

قال عباس بفزع : عائشة الخياطة ؟

قال حنكش : أعوذ بالله من غضب الله أنت مالك يا عبس ؟ خلينا فى الكافورة ٠

قال عباس : يعنى أنتم قابلتم عائشة الخياطة من أسبوع أو يوم ؟ من يومين ؟

قال سعيد : يوم الاثنين أول امبارح يوم أن دخلت القطة من الباب وهو مقفول كنا راجعين من عند عمك حفنى ٠

جن جنون عمك عبـاس فصرخ : أفهم الحكايـة من الأول ، ما دخل شلبية وعائشة بالكافورة ؟

قال شكرى : احك يا سعيد أنت كلامك مصحف بالنسبة لعمك عبـاس ٠

قال سعيد بعـد أن تنحنح : أنا حالف يمين ألا أتكلم فى هذا الموضوع ٠

قال حنكش : لا يمين ولا شمال توكل على الله ٠

قال سعيد : علشان خاطر عمك عباس ، ولو انى عـارف أنه لن يصدق أى كلمة ٠

قال عمك عباس : يا سلام يعنى عايزنى أصدق ان الكافورة وقعت وبعدين وقفت !!!

قال سعيد : والله أنت حر ، أنا قلت ما عندى ، ثم ان موضوع به شلبية وعائشة الخياطة ويكون عادى ؟ يا أخى كل واحدة منهما توقع بلد ٠

قال شكرى : يا أخى العالم لا تفهم بالأدب لابد من الزعيق والتهديد، والمسألة بالاختصار قلنا الكافورة وقعت قدامنا أنا وحنكش وسعيد وشلبية ، عباس قال احنا كدابين وجاء سعيد وقال له الكافورة وقعت وقامت علشان يصـبح الهبل رسمى ، يعنى السكاكرة بتقول لكم اللى يصدق يصدق واللى ٠٠٠

قال عباس : الرحمة يا سكاكرة يا ناس سألف فى بلاد خلق الله مجنونا وأحدف الناس بالطوب ، والله فكرت أسكن بلد غير السكاكرة ولكن بنت الكلب لابدة فى دمى (بكى عباس) أعوذ بالله من حب الانســان لمرضه ، وحب القط لخناقــه ورحمته أن يظل فى العذاب ، على كيفك يا شلبية ٠

قال شكرى : احنا فى الهوا سوا ٠

نادى عباس ولده عبد المقصود : دور شاى تقيل ، واقفل علينا الباب وجلس عباس وأكمل أنا مستعد أسمع ٠

قال حنكش : واحنا واقفين عند دار عائشة الخياطة وكنا راجعين من عند عمك حفنى خرجت لنا خالتك شلبية وقالت مرحبا ٠
أشار عباس وقال : لحظة الله يخليك ٠

ثم نادى على ولده عبد المقصود : الشاى ؟ قلت لك اقفل الباب ولا تفتحه لصنف مخلوق ٠

لم يرد عليه عبد المقصود ولكن نظر اليه فى ارتياب واقفل البـــاب ٠

ساد صمت ثقيل على الجميع وانتشر نقر الدرابك ينز من شقوق حجرة عباس وتراءت لهم عائشة الخياطة بأسنانها الذهبية وحور عينيها أمام الجميع وكان صوتها لا يصل اليهم ولكن نقر الدرابك كـــان عاليــــا وزادت الطرقات وفتح البـــــاب ودخل عبد المقصود : الشاى ٠

انتبهوا جميعا وتناول عباس صنية الشاى وصب ووزع على كل واحد وكل منهم لا يقوى على الامساك بالكوب ، وسعيد مازال واقفا بخياله فى بيت عائشة ويرى العنكبوت فارشا أركان البيت ومتصلا مع بعضه البعض وداخل نسيجه تقع فراشـــات وذبابات محاصرة حد الموت، ارتجف قلب سعيد المتوكل ونظر ناحية حنكش وكان حنكش مسلوب الارادة وقد رمى نصف عينه الباقى له من العمى فى كل اتجاه فلم يبصر الا الوحشة والرهبة ، وأحب سعيد أن يطمئن على أصحابه فقد سقط قلبه فى كعوب رجليه فنظر ناحية شـــكرى وكان شكرى مشـــغولا بالبحث عنها فى عتمة المكان وقد

وقفت طاقيته فوق رأسه كصومعة الغلال فوق الدار ، وكان المكان معتما رحبا من كل شيء خلا الا من الوحشة ازدحم بها وجاءه الصوت : وبعد أن قالت لكم مرحبا ؟

هكذا تكلم عباس محاولا أن يذكرهم بما قالوا ولكن أحدا لم يرد عليه ·

قال سعيد : دخلنا ــ وجدنا حصيرا على الأرض بجوار الحائط فجلسنا وجاءت عائشة تسبقها رائحتها المميزة ، لا هى بالعرق ولا بالعطر ولكنها كندى الحقول ··· رائحة ··· هى رائحة عائشة الخياطة ، وكانت أسنانها الذهبية واضحة فى فم واسع بشفتين كأنهما فرغتا من التقبيل لتوهما وعينان

بئر غريق ودرابكها تحت ابطها ·

نظرنا ناحية عائشة والى رقبتها بالتحديد فضحكت وقالت :

ــ كل واحد عنده همه من المشاكل لا يقدر أن يشيله جمل ولا أحد يريد أن يحمل مشاكل الناس ، فلماذا وجع القلب ؟

فى هذه اللحظة قال شكرى : العذر يا عائشة ··· الموضوع أكبر مننا ونحن أصبحنا فى وسط الطريق ·

قالت : الموضوع لا يهمكم أبدا ، ولا تعرفون عنه شيئا ، وأنتم بعيدون عنه تماما وعن الطريق الصحيح ، وهذا الموضوع كلما دخلتم فيه وجدتم أنفسكم بعيدين عنه نهائيا (سكتت قليلا ثم قالت) الأمر موزع بينى وبين العم حفنى وبين شلبية ، وهو واحد له تفرعات كثيرة وهذا الأمر لا يهمكم ··

إهتموا بأنفسكم أو ما سينسى من السكاكرة مثلا أين ذهب ابراهيم ابن سليمان الحداد ؟

من زارع القرية وأين ذهب ؟ وهل سيعود ومتى ولماذا ؟؟؟ أين سليمان الحداد ؟

قال حنكش بذكاء أحمق : والأستاذ أحمد أليس فى الشركة معكم ؟

هطلت الدموع من عينى عائشة واسودت الدنيا كأنما الأمطار ستهطل الآن وكأنما نذير الشؤم معلق على روؤس العباد على بعد شبر ٠

وقفت عائشة وقالت : مع السـلامة ٠

أحسست بالندم والخوف ولم أنظر ناحية أحد ٠

وإذا كان كسر المألوف محبب الى قلبى وكذلك الوقوع فى المحظور فلماذا أحس بالندم الآن ؟

وأحسست كأن قوة تدور بى ووجدت نفسى خارج دار عائشة ومعى حنكش وشكرى ونسير فى الشوارع وقد تركنا دار عائشة على بعد زراعين والضـباب ينزل فيغطى كل شىء ، فيختفى معـالم الأشياء ولكن تظل الحقيقة على حالها من الصراخ الصامت تبحث عن من يريدها ويسعى اليها فتسعى اليه ٠

(١١)

وقف عباس على باب شلبية ولم يتكلم ، ورأته شلبية ولم تتـكلم ٠

كان عباس يحس فى هذه اللحظة أن قوته تنهار وأنه يرتعش وضعيف جدا ولا يســتطيع أن يأخذ موقفا نهائيـا منها ، وكانت شلبية تتدفق فى داخله شـلالا من العشق المحرم المكتفى بالنظر والترقب ، وكانت وهى فى جلستها الصموت لا ترد ولا تصمـد ولا تعتبر أن أحدا أمامها بالفعل ٠

جمع عباس شجاعته فى قبضته ووضعها فى صوته سؤالا ٠

ـ كلام شكرى وحنكش صحيح يا شلبية ؟

ـ الله أعلم ٠

ـ يعنى ؟

ـ كل واحـد له كلام على قد عقـله ، ثم انزاح من قدامى ولا تعكنن على حياتى ٠

ـ تغيرتى كثيرا يا شلبية ·

ـ كل شىء يتغير ·

ـ أنا عباس ·

ـ والله ··· أهلا يا سى عباس ·

ـ أنت مالك ·

ـ حنكش وشكرى و ····

ـ كل الناس لها الحق أن تقول كل شىء ومن عنده الدليل على أى كلام كذبا أو صدقا يتفضل ·

جلس عباس أمامها وقد ضربت سيوف الشك قلبه ، فأنبتت قبة كبيرة فيها كافورة وشيطانا وخوفا وشكا ، واستعرض وفتش فى سيرة حنكش وشكرى وسعيد فوجد أن سعيد لم يكذب أبدا فكيف يتفق هو وحنكش وشكرى فى حكاية واحدة ؟

ما معنى أن يتفقوا على وقوع الكافورة والأدهى أن الوحيد الصادق منهم يقول أنها وقفت تانى ؟ ربما جاءته عدوى الكذب منهما ؟ ممكن ··· من عاشر قوما ···

قالت شلبية : يا سلام كل كلمة تسمعها تصدقها والمطلوب الدليل من شلبية أو عليها حتى ولو كان شرفى ؟ ، عيب يا عباس كلامى حد السيف وأنت حر صدق أو على كيفك يا عباس ·

قال عباس : طيب وحكاية الكافورة ؟

سكتت شلبية ، ثم قالت : صحيح الكافورة وقعت وبعيدين وقفت يا عباس ٠

قال عباس : لا ؟

قالت شلبية : صدق عقلك يا عباس ٠

قال عباس : الرحمة يا شلبية ٠٠٠ أنا بقيت لعبة فى يديك ٠٠٠ أنت سرك معى ٠

قالت شلبية : ربنا يكملك بعقلك ٠

قال : يا شلبية أنا شفتك ألف مرة وأنت تدخلين وتخرجين من باب عائشة المقفول ٠

قالت : بيتهيألك ٠

قال : والله العظيم حصـــل ٠

قالت : أنت حـر ٠

قال : سيكون هذا آخر كلام بينى وبينـــك ٠

لم ترد عليه شلبية وظلت تنظر الى البعيد ٠

وكان عباس يتذكر أيام الود الجميل بينه وبين شلبية ، وكان يريد أن يتزوجها وأن يتحول الود الى أكثر من ذلك ولكن شلبية

هى التى فركشت الموضوع لأنها لم تعطه اجابة أبدا ولم تقطع حبل الاتصـــال ، ولم يكن يعرف منزلتـه عندها وان كان فى كثير من الأحيان يحس أنه قريب منها ، وعرض عليها الزواج أكثر من مرة ولكنها قالت : ابعد عن طريقى تكون بخير ٠

فلم يكرر العرض واكتفى بالود الجميـل ، واذا كان مرور الأيام ينسى ويجعل القلب كالحجر فان العشرة والعادة تدخل الى القلب وتلبد فيه كالسوس ولا تطلع أبدا ، والله من أثر العشرة قد تحس بالفقدان لكلب ينبح عليك آخر الليل اذا لم ينبح فى ميعاده ، ولكن كر الأيام وتباعد الزيارات وعدم المشاهدة تطفىء شـعلة الحب ، وتحوله الى ذكرى كلها مسخرة وكلام فارغ وقلة قيمة ٠

وكانت شلبية كلما قابلته تحكى له حكايـات عن بلاد الله خلق الله كما كانت تحكى له عن الجدود الأوائل للسكاكرة ، وكان عباس سيموت ويسمع منها حكاية حجرة أم سعيد وحنونة ، ولكنها تتكلم فى مواضيع أخرى، وبهذا لم تقطع حبل العشم ولم تزده ولكنه ظل موجـــودا ٠

قال لها بعد أن يئس منها :

سأعرف كيف أصل الى قرارك ، سأذهب الى عثمان النجار والأستاذ أحمد و ٠٠٠٠

قالت : اذهب ولا تأخذ رأى ٠

قال : يا شلبية أنا حبيتك والعشرة لا تهون الا على أولاد الحرام ٠
قالت : ليست لى مصـلحة فى الحرام أو الحـلال وأنت لا تعرف

الحرام من الحلال الا في حدود مصلحتك ، فتش كما تريد ورائي فلن تجد الا قضاءك وستأخذه بيديك ٠

قامت شلبية وخلعت ملابسها عارية كما جاءت الى السكاكرة وكما ستخرج منها من والى رحم السكاكرة ، كان جسدها كالشمع ونهداهـا بارزان ، ونزل عبـاس بنظره الى بيت ولادتها فوجـد الحشائش من الزعتر والنعناع كل يلتف على كل وعلى بعض وتغطى المكان وتتهدل على الجانبين ولا يظهر منها شيئا ، ثم جلست أمامه ونامت على ظهرها وفتحت رجليها وفردت وفرقت بيديها الحشائش على الجانبين فظهر ثقب صغير وضيق وأحمر اللون ودقيق ، فسقط عباس مغشيا عليـه ٠

تاه عبـاس في ملكوت الله وتعجب من حكمة الخالق وظلم الانسان وكلامه ولم يفهم ولم يجد كلاما يسعفه ، وتزايـد القلق والدق في رأسه فأمسكها خوفا من أن يطير نافوخه وغاب عبـاس ٠

وعندما أفاق لم يجد شلبية أمامه ، فقـام وهو لا يدرى أن ما رآه حلما أم وهما حقيقيـا ٠

★★★

ذهب عباس الى حقل الذرة ووقف تحت الكافورة ونظر اليها وكانت الكافورة واقفة مثل الوتد فقال لها عباس هامسا :

صحيح انتى وقعتى يا كافورة وبعدين قمتى ؟

سرى نسيم فحرك أوراق الكافورة وتلاعب بأفرعها وعباس ينظر ويسمع صوت شلبية في أذنيه ولا يعرف ماذا يقول !!!

صرخ عباس : يا كافورة انتى وقعتى ؟

وقبل أن يتم كلامه وجد الكافورة تميل ناحيته فجرى فسقطت الكافورة على الأرض ·

قال عباس : لقد جنيت على نفسى ·

وقفت الكافورة مرة أخرى ·

قال عباس بهدوء : أنا مجنون ··· أنا مجنون وشكرى وحنكش وسعيد المتوكل قالوا الحق ، وشلبية لاتصلح للزواج ليس لها الا ثقب صغير ·· أنا رأيته كما رأيت الكافورة تميـــل وتقع وتقوم ·

جاء صوت شلبية : ومن سيصدقك ؟

جلس عباس تحت الكافورة ونادى :

يا كافورة اقتلينى حنكش كذاب يا كافورة ، شكرى كداب يا كافورة ، سعيد كداب يا كافورة ، شلبية تصلح للزواج يا كافورة ·

ولكن أحدا لم يرد عليه ولم يحدث له شيء ·

قال بهدوء شديد : يا كافورة شـــلبية تصلح للزواج ، يا كافورة حنكش وشكرى وســـعيد المتوكل أولاد كلب وأنت وقعتى وقمتى يا كافورة ، اقتلينى يا كافورة ·

لم يحدث له شيء ..... لم يرد عليه أحد .

فقال : ربما الكافورة تفكر ، انتظر يا عباس .

★★★

في اليـوم الثالث وجـد عبد المقصود أباه عباس نائما تحت الكافورة وقد بال على نفسه ويرتعش من الحمى ، فحملوه الى داره وغسلوه ونام والحمى ترضرض فى عظامه وأرسلت زوجتـــه ابنها عبد المقصود الى عمك عثمان النجار .

جاء عثمان النجار ونظر فى وجهه وقال : لا أريد أحدا منكم هنا .

خرج الجميع من الحجرة وألصقت خالتك فاطمة زوجة عباس أذنها على الباب فقال عثمان : عيب يا فاطمة .

فسارت بعيدا تتعثر فى خجلها كأن لباسها سلت من وسطها وهى فى السوق .

قال عمك عثمان النجـار السـبع كلمات المنجيـات التـامة والكاملة فنسى عمك عباس ما حدث له وذهبت عنه الحمى الى بلادها .... ونـام .

★★★

قابل عمك عثمان النجار حنكش وشـكرى فوقف ، أحس كل واحد منهم أنه يدخل الى امتحان صعب لا نجاح فيه .

قال لهما : الحكاية زادت عن حدها ، وكل واحد ينشغل بحاله .

قال حنكش : السلام عليكم .

ثم أكمل عمك عثمان دون أن يرد على حنكش : لا تعبثـــوا القبور ·· فليس فيها الا الرمم وابعدوا عن طريق القبور ·

قال شكرى : نعـــرف ·

قال عثمان : ستدفع الثمن ، انشغل بحالك أولا ·

قال حنكش : الزعل مرفوع ···· الموضوع خرج عن أيدينا ونحن موحولين الى الرقبة ·

سار عمك عثمان فساروا ، وجلس فجلسوا ، فأسـند ظهره الى جذع الشجرة الكبيرة ، وكان المساء يقف على الأبواب متســـولا ينتظر الدخول ، والشمس تجرى كأنما أصابها جن وتنزف على هامات النخيل والغروب امرأة لعوب تطل برأسها ساحبة ذيلها ليل طويل يتلصص ليغطى كل شيء ·

قال عمك عثمان : نعم ؟

قال شكرى : عائشة الخياطة ؟

قال عثمان : سؤال واحد سأتكلم فيه ·

قال : عائشة الخياط ·

قال عثمان : هى ابنة حنونة

قال حنكش : ورقبتها من عند فاطمة السبعة ·

قال شكرى : وحبيبة ؟

قال عثمان : كانت ترافقها وتظن أنها ابنتها ولكن ابنتها أخذتهـــا شلبية ولا تعرف أين وضعتها ٠

قال حنكش : وشلبية ؟

قال عثمان : تظن أن عائشة ابنتها وتسأل عنها حنونة ، وهى لا تعرف أين أخفتهــــا

قالا : كيف حدث هذا يا عم عثمان ؟

قال : فاطمة وضعت مولودا ذكرا أخرسا ــ كما قالت لها الأقدار ــ فأخذته حبيبة ووضعت ابنتها مكانه ودفنت الولد الأخرس فى بيت أم سـعيد ، فى هـذه الأثنـــاء دخلت شـــلبية ووضعت ابنتها مكان بنت حبيبة وأخذت بنت حبيبـــة وهى تسأل عنها ، بعد خروج شلبية دخلت حنونة ووضعت ابنتها مكان بنت شلبية وأخذت بنت شلبية وخرجت وهى المسؤلة عنها ولا نعرف أين ذهبت بها ، ثم عادت حبيبـــة وظنت أن التغيير الذى طرأ على البنت المولودة شىء طبيعى لأنها بجوار فاطمة السبعة ، فايقظت فاطمة التى كانت فى سابع نومة ٠ وكل هذا يحدث حولها ٠

فاطمة حنكش : وابنت حبيبة ؟

سكت الرجل ولكن حنكش ألح وكاد صبر عمك عثمان على النفـــاد فقال :

وبعد أن أفاقت فاطمة من نومها ٠

قاطعة حنكش وشكرى : وابنة شلبية هل هى فى السكاكرة ؟

وقف عمك عثمان : السلام عليكم ٠

تعلق حنكش وشكرى بأكتاف عمك عثمان ولكنه نفضهما وسار قائلا:
الكلام فى سؤال واحد وسار عمك عثمان وبقى حنكش وشكرى كل منهما أمام الآخر ينظر اليه حتى حجبهما المســاء ونزل ستار كثيف من الظلمة بينهما ٠

غاص كل منهم فى داخل نفسه ونزل الى أعماق وحشته فى ملكوت نفسه وسافر كل منهم الى عائشة وشلبية وحنونه وعرجا على أم سعيد وحبيبة ومعظم الأحياء والأموات وما مر أمام عين أى منهما أو فى ذاكرتهما وكذلك أسئلة كثيرة حضرت أمام أعينهما ولا أحد يرد سؤالا حائرا يفتح الطريق للمجهول مرة أخرى وكأن السكاكرة تعطيك طرف الخيط ولا تتركك تتبعه ، ولكن فى لحظة ومض فى داخل كل منهما باب يفتح الى عالم ربما فيه اجابة على الأسئلة ويعرف كل منهما ما يريد وزيادة وفى تلك اللحظة نزلت قطرات النــدى هاربة من أشعة الشمس التى فى البعيد فعرفا أنهما باتا ليلتهما فى الفراغ ودوامة السكاكرة لم ترحمهما ٠

سار كل منهما فى طريق غير الآخر ، لكأنما يتحاشى كل صاحبه بعد ما حدث لعمك عباس الذى لايبرح داره ولا يذهب اليه أحد ٠ من الناس ٠

ولكن الموضوع بالنسبة لسعيد المتوكل صار مسألة حيــاة أو موت ولكنه عندما أراد أن يتكلم فى هذا الموضـــوع تذكر يمين الطلاق فصمت ٠

(١٣)

لماذا يفتحون على أبواب السدود المقفلة ؟

أنا أخذت قماشا قديما وهلا هيل وكورتهم ودفستهم فى الباب الذى يأتى منه الريح لأسده وأستريح ، ودهكته بالطين والتبن ٠

أى قطة خبيثة لعبت فيه ؟ أو فأر قرض الهلاهيل فانسابت الأسئلة لتقتلنى ؟

لماذا يا حنكش أنت وشكرى وسعيد تريدون أن تفتحوا على أبوابا لا أريدها ؟

وأنا عندى لكم من الأشياء التى تجعل الواحد منكم يجرى فى شوارع السكاكرة مجنونا ، من يتحمل ما نحملته ياناس ؟
أنا لا أشكو ولكنى أتوجع وهذا حقى ٠

لا أبا أعرف ولا أما أعرفها ، صحيح أحن الى حبيبة وتناديني بكل حنية الأم ، ولكنى أطير مع قلبى الى شلبية ، وعينـاها تقولان

الكثير من الكلام ان لم يكن كله ، فيصل الى القلب ويشرخه وأنا أعمل عضم من الحديد وأتحمل ، من منا لا تريد لها أما تبكى على صدرها ؟ تدفن نفسها فى حضنها ؟ تصاحبها فى رحلتها من الطفلة الى المرأة ، فاطمة السبعة أمى الأساسية ويقولون أننى أخذت رقبتها ولا أعرف أين رقبتى ؟ وان كان الكلام الذى يدخل فى قدمى وأتعثر فيه يؤلمنى ولكن لا دليل عليه ، وأنا لا أعرف من أمى فى هؤلاء ، فأنا بنت كل الناس وأنا أحب كل الناس ولكن أريد شيئا خاصا بى مثل كل الناس ، والوحيدة التى أحببتها من سيرتها هى حنونة وأحس أنها حولى فى كل وقت ولا أصدق ما يقال عنها ولكنى أصدق فقط ما أريد ، وفى كثير من الأحيان أكلمها وترد على ، وفى المرات القليلة التى رأيتها فيها أجد لسانى ينطق أمه حنونة ·

ولكنى كنت أخاف منها وقد كان حبها يعذبنى فلم أستطع الوصول اليها ، كأن الطريق بينى وبينها به سدود كثيرة ولكن كنت أراها من خلال فتحات فى السدود · حبيبة فى حالها وقد تمكنت من السيطرة عليها وعلى الرمح وأنا لم أكن أستطيع العيش معها أو معه فكان لابد لرجل كالرمح أن تعيش معه امرأة كحبيبة فى بيت واحد ، وسكوت حبيبة يوم اقتحام منزلها دليل على أنها كانت تنتظر هذا الأمر من سنين طويلة وكنت أرى ذلك وأحسه فى عينيها قبل أن يحدث بسنوات لهذا عجلت بالرحيل قبل أن يأتى ·

والآن الرمح يصرخ منها وأنها لا تريد الزواج من أى مخلوق ، ومع ذلك فما زال يعمل عندها ويسمع كلامها ولا يفكر الا فيها وهى بعيدة عنه فالى متى الصبر ؟

والى متى يظل الرمح مغروسا عندها ؟

حبيبة تموت فى الرمح وتتأمل جسده وهو نائم وتحلم به فى صمت صارخ مكتوم وتأكلها الرغبة فيه ، وكانت تحلم به قبل

أن تراه ولكن تخاف أنها لو أنجبت ذكرا فان الفيضان الذى سيأتى عقابا لها سينقل السكاكرة ، وهو فيضان مثل الذى أوقفه ابراهيم ابن سليمان الحداد ورحل فيه فى سفينة من صنع يديه ولم نعرف له اتجـــاه . وهى تعرف أن ابراهيم ليس موجود معنـــا وحدوث الطوفان يعنى فناء خلق كثير ، ثم ترتفع السكاكرة من مكانها على سطح ماء الطوفان الى مكان آخر لانعرفه ، وستفيض الأنهار والترع وهى واقفة الى أعلى حتى لا ينجو أحد وتقف السكاكرة على شواشى رأسها بالمقلوب وتعوم هكذا هكذا ثم تهـــدأ فتنعدل السكاكرة فى مكان آخر وزمان آخر وربما تصبح قرية ككل القرى .

وهكذا تصير الأمور وهذا غير ممكن وغير معقول .

هو المحال بنفسه ، ثم من سيتركها تفعل ذلك ؟

انهم يراقبون كل شىء ويتدخلون فى اللحظة الأخيرة ليعيدوا الأمور الى نصابها وهى تعرف طوال الوقت أنهم يرونها وأن أعينهم عليها فى كل لحظة فهى بين الخوف منهم والجسد النهم تريد وتخاف وتخاف وتريد وتخاف .

وهى تراهم وهم يبصون عليها من الجدران ومن السقف ومن الأرض فتكثر من استرضائهم لأن دقات قلبها تصل اليهم فيعرفون .

لكل هذا فهى فى عذاب أكبر من عذاب هجر الرجل للمرأة وتعبها تسبقا ليلة الجمعة ، والأدهى والأمر أنها تعرف لو أنجبت بنتا مرة أخرى ـ اذا حدث زواج أصلا ـ فان هذه البنت ستروى بدمها فى خط متصل طويل غير مقطوع من الدماء ما يربط بين السكاكرة وبيت السر حتى تنبت أشجار الدم فتهطل الدماء أمطارا أربعين يوما

وليلة ثم يكون ليل طويل فيه تتهدم السكاكرة وتبقى فى مكانهـا شجرة الأصل التى تحمل فى قرونها بذور كل شيء من النبـات والحيوان والطير وما شابه وما شاكل ، أما جذور هذه الشـجرة فتمتد لتصل الى السراديب التى كنت أدخل اليها وأعيش فيهـا لبعض الوقت وهى تصل الى حجرات حاملى الأسرار وماسكى خيوط السـكاكرة فتتجمع خيوط الدم الانتقام والمنح والمنع والنضج والولادة والعقم فى أيديهم فى باطن الأرض • حبيبة تحب وتخاف ، وهى طوال الوقت تكلم الذين يسمعونها ويبصون عليها ومن خوفها عقدت معهم اتفاقا سريا لحمايتها من الرمح ، وافراغ شهوتها فى ملابسها أولا بأول أثناء جلوسها أو فى نومها ، ولكن رضائها بالحل وعدم الكشف عنه يؤكد أن هناك جزء سرى فى الاتفاق وهى الآن يأكلها الاشتهاء فكيف تتحكم فى نفسها ؟

هى معذورة على ما هى فيه ولابد أن هذا الاتفاق بينهم جعلها تأمل ، لأنه ليس فى مقدور واحدة مثل حبيبة تحمل ألمها وهى التى تسمع لجسدها فحيحا يكاد ينطق ويقول ـ مرة واحدة وما يحدث يحدث ـ •

وان كانت حبيبة لم تتفق على شيء غير الحماية فلماذا تحتفظ بالرمح عندها ؟

وكان يمكن طرده بدلا من الحماية منه والاحتفاظ به ؟ •

أما شلبية فهى لمست بيديها العالم السفلى وعاشت فيه ، ولها قدرات خاصة ليس لنا الحق فى الكلام عنها ، فكل منا له قدراته التى تميزه عن غيره ولايعرفها أحد رغم أننا نعرف الكثير عن بعضنا الا المناطق الخاصة ، وهذا ما يعطينا تميزنا وحريتنـا بعيدا عن أعين الكشف •

شلبية لها ما لها وعليها ما عليها .

داخلها مناطق مظلمة كالأيام السابقة على ظهور السكاكرة ، حيث كان الظلام والمطر هما المسيطران ، ولقد رأيت في رحلتى كل هذا ، رأيت بحور النسيان وآبار الشك وعواصف التذكر وأحلام الآلام وأوجـــاع المحبين واعترفت وشربت حتى تعبت وتعبت منى البحار والأنهار والآبار ، فرددت وراءهم ورد الشكر « العفو والرضا لأننى لا أملك الا أن أرضى وكما تعلمون ضعفى فى التوجه اليـــه بالشكر ، فمن أنا حتى أشكر ؟

وماذا يضيره اذا لم أشكر ربما لا يرانى وان كان يرانى فماذا أريد أكثر من هذا ؟ حتى لو غضب على فلك الشكر لأنك أنت لنا ونحن موجوداتك ، يا صاحب السر زاد الشوق فلا عتب اذا أخطأت فى التعبير لهذا ليس أمامى الا الصمت ...

تقبل يا .. صاحب السر » .

وبعد هذا عندما يزورونى أحد منهـم فاننـــا نتكلم ونتذكر وتجتاحنا العواصف وأكاد أنخلع من طينى وأحن الى نارهم ودارهم ، فلابد لشلبية أن تظل الى جوارى ولابد لروح أبى أن تظل الى الأبد حـــولى .

أما روح أبى فهى هذه القطة السوداء الذكر ، وهى معى من يوم أن رأيت السكاكرة ودائما بجوارى ، وكلما سألت قالوا روح أبيك ... قالوا فى العالم السـفلى سخطته على هذه الصـورة حنونة ؟!! .

وأنا أسأل ما علاقة أبى بحنونة ؟ وأين أمى ؟

وحنونة هذه ملكة تانيس فى الزمان القديم ولكنها عادت الى السكاكرة لأمر ما ، ولزوم الانتظـــار وتنفيذ الأوامر ، ولكن لماذا أخذنى الظلام بعيدا عن حنكش وشكرى وسعيد المتوكل وأسئلتهم ؟؟

ما هذا الجنون بالاشتياق الى روح أبى والى حنونة كأنها أمى ؟

يحس كل واحد منا أن بداخله مناطق مجهولة ومناطق سهلة ، أو مألوفة ولكن فى لحظة وعند تأملها تحس كأنك لا تعرفها ؟

ربما تراها لأول مرة ومن شدة وجودها معك لم تتأملها ـ يدك مثلا ـ لاتحس بها ولا تتأملها وتتعرف عليها الا عندما يصيبها مرض أو جرح ، نحن من شدة اعتيادنا على الأشياء نهمل تأملها ٠

فمن شدة اعتياد الناس على السمك فى الترع لم يفكر واحد منهم ماذا لو توقف عن المجىء ؟ ومن أين يأتى ومن أجل من ؟

ويحسون أن ما اعتادوا عليه حتمى كنقر الدرابك وصوتى ، كاعتياد الكون على الســـكاكرة فماذا يفعل اذا ذهبت أو اختفت برضـــاها ؟٠

والناس لا تعرف فالبعض يعتقد أن الكون نشأ ثم السكاكرة تصوروا ؟؟؟؟

من القبل كانت السكاكرة الكلمة والارادة والجمال العنيف . والكون نشأ كعشبة فى نعلها ٠

ولهذا فان الناس عند تغيب شىء اعتادوا عليه فانهم ينتبهون بشدة ويلومون هذا ٠ ولا يعيبون عدم شعورهم بوجوده ؟

فهل ستذكرون عائشة الخياطة ونقر درابكها ؟

هل مازلتم تذكرون عائشة وهى تحيك لكم ثيـــاب عرسكم ومأتمكم ؟

هل تعرفون من علمنى هذه الصنعة ؟ ولماذا تركتها ؟

هل نقص شىء عليكم ، بعد أن تركت هذه الصنعة لأحمد الميت ومحمد أبو الدهب ؟

نسيتم طبعا عائشة الخياطة ولاتذكرون الا عائشـــة المغنية وأنا دائما أقول : أنا عائشة الخياطة ومع ذلك لا ينتبه أحد منكم ٠

لماذا تظنون أن السكاكرة قد اعتادت علينا ؟ والحقيقة اننا السكاكرة فى تميزها الأصيل ، نحن قبيلة منها عبد الحميد الحصرى، وحفنى ، وعثمان النجار ، وعبد الله أبو الحياة ، وست الناس ، وحنونة ، وشلبيبة ، وشاهنداس ، وفاطمة السبعة وعائشـــة الخياطة ٠

ونحن أشد قربا الى أحمد الجديد والأستاذ أحمد وأبو عامر وان كانت زوجته من قبيلتنا فى طرفها الأبعد لذلك كان التصاقها بالطين كبيرا . جعل طرفها فى يد أبى عامر الذى سيطر عليها فوصلت الى هذه الحالة التى لم تتحملها من الكشف لأول مرة فلم تتحكم فى قدراتها وأحست أنها ليست منا فأكلها القطار ٠

الذى يوجعنى فى هذه المسألة ٠٠ أحمد

أحمد وجعى وبهجتى ٠٠٠٠

أحمد فرحى واحتراقى ٠٠٠٠

أحمد ألمي الذى لا أرجو الشفاء منه ولا أريد أن يبرحني ٠

آه يا أحمـــد ٠

أحمد الذى يعرف ويصمت والذى بينه وبيني أقوى من القول واكثر من الفعل ، ورغم بلاغة قولى عندما يتردد فى ضميرى مثلما أنا الآن الا أن الكلمات لاتستطيع أن تصف وتصل ما بيننا لذلك ينقطع الكلام بيننا ونمتزج فتنهار التفاصيل ونغرق فى عرقنا ٠

أحمد هو آخر الرسائل وهو المارق بين الممنوع والمسموح وهو حالة خاصة لا تتكرر ولا تتشابه ٠

كلامى مع السكاكرة وفى ضميرى بلغتى ،

لغتي العالية التي أرى أحمد فيها وبها معنى وكناية وصلة بين ممنوعين ، أما مع الناس فبلغة الناس ٠

وأنا تهبط على اللغة لا أعرف من أين ولا كيف ؟

ومن الغريب أن أحمد يتكلم معى بلغة الناس ولكن يحس همس الحروف باللغة الأولى مع ضميرى فيقول لى : افتحي ٠٠٠ أدخليني كلى لاتتركى شيئا وتحملى ألمى أريد أن أتعلم ٠

والعم حفني قدراته فى يديه وعينيه لأن ما يراه يصفه ويسميه الا أنه يرى بعيدا وعاريا ٠

ويخترم بنظرته الأزمان والأماكن ، وكنت أخاف من لقائه مع أحمد ولكن أحمد تعلم منه وتسلم الرسائل وسيقوم بابلاغها عندما يؤون الأوان ٠

أنا وأحمد مجمزة من العشق وحب الحياة كماء فى ماء ، لاتعرف الأجزاء ولا تعود كما كانت قبل الإمتزاج الا أن يعلو ويصعد ويمتد ويفيض ونظل نجرى فى أبعاضنا ونحن واحد مكتمل هكذا هكذا ...

.... ـ ـ ـ ـ ....

.... هـ ك ـ ذ ....

هـ هـ ك ك ذ ذ !!!

بالضبط نحن هكذا .

ولكنى قليلة الحظ بعشقى ومن يعشقنى .

وقليلة الحظ مع الناس ، فهذا هو حنكش وسعيد وشكرى كل منهم يعث خلفى ويفتش ، وانا هوايا أن أكون واحدة مثل أى واحدة من السكاكرة لها بيت وأولاد وزوج وحيـاة ، واحدة ليست مكلفة بأى شىء أتعامل مع جنس واحد من المخلوقات ، ولكن هذه هى الارادة وتلك هى المشيئة .

انظروا هذه شلبية تجلس تحت الكافورة والصفصافة قريب منها والأمر ملتبس على ، وتحت الصفصافة شكرى وسعيد وحنكش وهى لاتصبر على كتمان السر ، وتقوم لتدخل حقل الذرة لتحل كل رباط حولها حتى تستطيع أن تتكلم ، بدأت فى الكلام تحت الكافورة والكلام سيقتلع ... يا ساتر ... الرحمة الكافورة تقع ... لماذا يا شلبية ؟ هؤلاء مازالوا صغارا ، وأعوادهم طرية ، الرحمـة عليهم وعلى أصحاب السر وعلى من هرب ورأى لمرة واحدة وعلى سعيد المتوكل الذى رأى الفعل ونقيضه ، نحن يا خالة شلبية

مشدودون بخيوط رفيعة الى السكاكرة لافكاك منها ولا بالموت لأننا سنموت فيها ولكن هناك محاذير فلماذا يا شلبية البوح ؟؟؟

نحن السكاكرة بطينها وطيورها وناسها ونباتها وكل خيوطنا تصل الى بيت السر ولا نستطيع أن نعيش خارجهـــا حتى أحمـد يذهب ويعود ٠

آه منك يا أحمد أرى فى عينيك ألمى وأنا أعنى فى الأجران وكنت أسمع همس السؤال ٠

ـ وماذا نفعل بعدك يا عائشة ؟ ـ

طيب أين أنت الآن ؟ عائشـــة تنتظـــرك ٠٠٠٠ على كيفك يا أحمـــد ٠

لكل زمان عائشة ٠

ولكل زمان أحمد ٠

ولكن سيظل نقر درابكى الوحيد المحفور فى جـــدران قلب السكاكرة ، لأنكم لم تفعلوا شيئا بعد فاطمة السبعة سوى تكذيبها والبحث عن الفضائح وأنت صامت يا أحمد وتارك لهم الحبـل على الغارب ٠ ورغم هذا بقى بينى وبينك غياب صامت وحضور متصل بالغياب ٠ بينى وبينك شىء ناعم وحنين لا أكاد ألمسه ٠ وأخاف أن أمد يدى عليه وأحفظه بعينى ، فان لمس الحرير يدميه ٠٠٠ أخاف من شدة خصوصيته أن ألمسه فيفتضح أمرى أو يتهشم من النسيم أو من دق قلبى عليه ٠٠

أنت تعرفينه ، واحكي لك عنه ، فانت التي تأتي عبر كل شيء وتسمعين كلامي لضيوفي وتعبرين بالارادة وأقول لك آخر الكلام الذى بعده الدخول الى المنطقة المظلمة لتمتلىء ، وعيونك دائما لاتسال عنهم ولكن عنه ؟ — ولماذا ؟ ···· من هذا ؟ ···· هذه أسئلتك فأقول لك صامتة : اتركيني لوجعنا يا شلبية ·

أنا لا أملك من أمره أو أمرى شـــيئا وهو يملك قلبي وزيادة هو الروح ··· كفاية ··· ليس عندى من الكلام ·· كلام ·

وكنت خاف أن اقابله أو التقى به ولكن كنت احســـه فى دمى ودائما على جسدى وداخلى لا أعرف هل هذا حب ؟ ولا أريـــد أن أعرف ما قيمة المعرفة اذا كان المراد متحققـا والاتصـــال دائم ولو على البعد فهو لايكتمل الا بى ؟

هل هذا استكمال نقص بيننا ؟

لم أغير أبدا والله عندما تزوج ، ولكن سعيت لأعرفها ، ورأيتها ونظرت داخلها ، كانت عيونى تسبح فى دمهـــا بلا رحمة فأجدها هادئة ، تحبه جدا ·· وهل نملك غير هذا ؟؟؟؟ تحبه حد الجنون ···· وهو بنصف عقله لأنه لو أحب بعاطفته لسالت الدنيا شبقا بين يديه ·

هل نملك الا أن نحبه ويحب كل منا الآخر فى حبه ، البعض يحبه من سيرته دون أن يراه ، والبعض بجواره ولكن لا يعـــرف قيمته ولا يقدره — فلا تعرف قيمة الصحة الا بفقـــدها — تنقلت عيونى فى دمها وأسريت الى قلبها الذى صار عشه وجسدها الذى يعرق برائحته ومن سيرته ويتبزر ويتفزر من مشاهدة عينيه وسماع

صوته فهو يقشر عنها غابات النسيان كما قشرت السكاكرة عشب قدميها فكان الكون ·

هي مؤامرة اسمها الحياة ، وهو يزرع على جسـدها وفى مباهجها غابات من الزعتر والنعناع ويحشوها بالوجد ، ويجتاحها بفوران دائم وهمة شديدة هي طوفان بدء الحياة ، أنه الحياة ، انه التناقض من شدة الانتظام والسكون المرتقب لكأنما يتفرج على الدنيا ليرى ماذا ستفعل به وبهم ولكنه يعرف الطريق جيدا ·

انه يتفرج علينا بعد هدأة الطوفان ويبتسم ونحن مازلنا معه وكأنه ماءنا ، بكل محرماته ومحللاته حتى أخره ، كل شيء عنـده حتى الاكتمال ·

ان ما يفعله معي لا يقـل ولا يزيد ولكن يختلف عما يفعله معها ، فكل واحدة لها طاقات وحـدود ، وما يحدث للطين حـرقة لا يحرق النار فأنا وهي واقعتان فى منطقة عدم الفهم وعدم وجود لغة للتعبير ·

فهل لكل منا لغته ووجعه وهو الدواء والمستمع لفحيح الحياة فينـا ؟

ماذا يريدون أن يعرفوا ؟

ما بيني وبينه ؟ وكيف أقوله ؟ واذا قلت هل سيفهمون ؟

ثم هل نحن أولا وأخيرا نعرف لنقول ؟

الرحمة يا ناس ·

كيف أحكي عن شيء ؟ لا أملك له وصفا ؟

سأقول لكم أنا الطفلة وهو لبن الأم ، هل فهمتم ؟

أنا عائشة وهو أحمد ٠

هو عباءة تسترنى عارية من نفسى فى توحدى معه فأرانى وأراه فى عين اللحظة ، هو عندما أريده أجدنى ، فأنا بدونه عارية فى وجع الليل أسير وروحى نعل مقطوع الشعث ونفسى لبن يترجرج مسكوبا فوق مرايا الحلم ولا أملك من أمرى شيئا بين يدين احتوتا العالم فهو عندما أحتويه يحتوينى ، وعندما يحتوينى أحتوى العالم وزيادة ويحرقنى فيتحدد معدنى وأصير جديدة فى كل مرة ٠

وعندما قال العم حفنى : هو لا يدرى بما بينكما لأنه طوفان لا يعرف كم اقتلع من الأشجار ٠

قلت له : كيف ؟

قال : هو فقط يطلق دمه عليك حين يراك ويقذفك بالوجد فى عين الوقت ٠

خجلت من العم حفنى وكنت أظنه عجوزا فقال :

أنا لا أريد أن أعرف الحكايات ، ولكنى أريدك أن تعلمى أن ابنه مطروح منه فهو واحد مطروح من نفسه ، وأنت لا تعرفين أن مجرد الوصف هو اساءة لما بينكما ، تكلمى بينك وبين نفسك كما تشائين بما تريدين وهو سيسمعك فلعل اللغة فى علوها تكنى وتبهم وتتفتح بينكما بحرا من البوح ٠

آه ....

يغيب عني بالأشهر والسنوات الغير مكتملة ولكنه يأتى وأحس به وهو يتذكرنى ويكتبنى شوقا عاليا وخوفا وجنونا مرتفعا ، وينشرنى كثيفا فيتعثر فى الهواء ، فأموت حنينا اليه أموت حنينا .

لم أر أولاده قط ولا أعرف عنهم أى شيء وهو لا يتكلم عنهم كأنما يتعمد وضع فاصل بينى وبينهم ، ولكن زوجته جاءتنى بالليل وأنا أغنى وجلست الى جوارى فقد عرفتنى على الفور ، حتى لو قابلتنى فى الشارع فستعرفنى ، أليست زوجته وتنام بجواره ونشرب من انفاسه طوال هذه السنوات ؟ ، وهى حوراء أيضا شديدة بياض العين وسواده ، وكلما نظرت اليه وجدتها تنظر اليه وكلما نظرت فى حدقتى عينا أحمد وجدت السكاكرة فيهما .

وكلما نظرت فى المرآة لا أجد شيئا .

★★★

أهلا وسهلا تأخرتم علينا ... وأنا فى انتظاركم ، الأحوال هى الأحوال والذى يتغير يتغير وكل شيء يسير فى طريقه .

- ....

- هم الذين يبحثون خلفى ، ويريد كل منهم معرفة مالا حق له فى معرفته وهذا حق أصبح غير معترف به وأنا رغم هذا لن أضرهم .

- ....

- لا اريد فأنا أحبهم .

- ....

- هم يتعبون أنفسهم ويضيعون ، ويضعون أيديهم فى أعشاش الزنابير ، وأنا خوفى عليهم هو سبب غضبى منهم ·

- ....

- انها ليست منى أنتم تعرفون ذلك انها من قبيلتنا وأنا أميل اليها فقط ولكنها ليست من فصيلتى ، وقد تمتاز عنا بشىء قليل وهو خلائط الاتصال المباشر بالأكثر دون الأفضـــــل ، بينما نتميز نحن بالأقل والمتميز لشدة تميزه ·

- ....

- بالنسبة له ليس عنده ولا عندى كلام نقوله ·

- ....

- نعـــم ·

- ....

- هو وجعى وفحيحى وجحيمى ، ورضاه جنتى وهو جنتى ، وما عندكم منا أمانة بين أيديكم ·

- ....

- وهو طبعا يعرفه ويراه ولست أدرى كيف ؟

- ....

- لم يسألنى عنه ولكن عندما سألته قال : كان معى .

- ....

- بقى لى الحلم بعودته .

- ....

- ربما لايدرك ذلك ولا يتذكر هذا الموضوع الا عندما يكون معى ، وهم يعرفونه فربما هو صديق الغواصين الأرضـــين الذين أخذوا أحمد الصغير معهـــم الى حيث الماء الأزلى المتدفق من أيـن والجارى الى أين داخل عالم الكنه .

- ....

- نزولا صحبتكم السلامة وبلغتنى الرســـالة ، وصـــعودا أهلا بكم أنتظر الرسائل .

- ....

- ليس عندى الا أمنية عودته ، وجمع شملنا أنا وهو وأحمد الصغير الواحد المطروح منه ، وهو يغضب عندما أقول أحمد الصغير ويقول هو ما جاء الا لشىء هام وجليل من أجل السكاكزة وقال لى نحن لانملك أن نأتى الى الدنيا مجانا ولايمكن أن نأتى الى هذه الدنيا

ونمضي مثل الذين يأتون ويمضون وهم فرحين أنهم جاؤا الى هذه الدنيا ومضوا ۰۰۰۰ والحقيقة أنهم استكمالا وتنويعا على عينـــة الانسان ، وكل واحد له لزومه فى تواجده حتى بالعيب الذى فيه وبه يصبح أكثر اكتمالا ، وليس كل واحد جاء مصادفة ولكن هناك من يدرك ومن لايدرك ۰

★★★

[جلست عائشة الخياطة فوق سطح دارها صامتة تحت ظل نخلة البلح الحياني التى اخترقت سطح الدار ، جلست ســـاهمة تنظر الى البعيد ، بين كل لحظة وأخرى تمسح دموع عينها فى كم جلبابها وفى بعض الأحيان تترك دموعها تسقط فى حجرها لكأنما تجمع فى حجرها حبات اللؤلؤ ، كانت عصافير قد ســـكتت عن الزقزقة ، وحمامات نسيت الهديل ، وديكة ظنت أنها فى ليل طويل جدا فوضعت آذانها وصياحها بجوار الحائط ونامت ، وابتلعت الزرازير والبلابل لسانها ووقفت تلهث ، ولا تدرى أن زمانا يرجع ويعود ثم يولى هاربا ، انطلق نهيق الحمار ونباح الكلب ، وأطلق غراب نواحه من فوق نخلة فضحكت عائشة الخياطة وعرفت بتمام عودة صوتها والأصوات المغردة الى رقبتها ، فتنهدت] ۰

آه يا أحمد ۰۰۰۰۰

آه يا أحمـــد ۰۰۰۰۰۰

يبدأ تذكـــرى لك بالآهات وينتهى بالآهات ، وبين الآهات والآهات أنا وأنت ۰

وأنت لاتدرى وجعى بك وربما لاتعرف وتكون معى فتتذكر وتعرف وبعد ذلك تنسى كل شيء بيننا ؟؟؟؟؟ = !!!!!!!!

ولكنك لاتغيب عن بالى أبدا ٠

فعندما جئت الى رؤيتى ورأيتك كنت أخاف أن أقابلك ٠٠٠٠ وقد حدث ، فبمجرد وقوفك أمامى وأنت شاب وأنا أغنى أدركـــت لحظتها أنك تغرق فى صوتى وتقر بإدراكى ، أنت لست كالآخرين ، يسحرك حسن صوتى ولكنك تستغرق وتعرف فلا تتنفس تخاف أن تفسد أنفاسك صوتى ٠

ويومهـــا هزأت بى وبصـــوتى وكنت تريـــد أن تكسرنى حتى لا يسيطر صوتى عليك ولكنى كسرت نفسى برضاى لك وسلمتك مفاتيحى ٠٠٠٠ وعندما اختلط العرق بالعرق كنت أريد أن أحتويك وسعادتى أعلى من القمر وكنت أريد أن أغنى تلك الحـالة وأنا محتشدة بك ، ولكن صوتى احتبس وعندما انطلق وجدتنى أقول لك يا أحمد ٠٠٠ آه يا أحمد ٠٠٠ أحبك يا أحمد ، وكنت غارقا فى احتشادا وعرقا ملهوفا ، وعندما نظرت فى عينيك وجدتنى سعيدة ومستسلمة برضاى لك كالسدود القوية التى تعرف حاجة الأرض الى الماء فتكسر نفسها برضاها ليمر الماء من النهر الى الأض ليغرقها وينهى عطشها الى الأبد ونطقت ــ عيشة ــ لم أسمع اسمى جميلا بهذا الشكل قبل الآن ، ولم أره أمامى منقوشا هكذا أبدا ، ولم أكن أعرف قبل الآن أن اسمى حلوا لهذه الدرجة ٠٠٠٠ وعندما تنادينى عائشة أحس أننى الحياة ٠

آه ٠٠٠٠ لابد أنك تغنى يا أحمد ٠

وآه لو غنيت لخلعت السكاكرة من جذورها وألنت الحديد ٠

آه لو سمعت السكاكرة غناءك لارتفعت أعلى من جريد النخل ورقصت وشخلع الهواء جلابيبهـا فى المدى فشخللت شـــخاليل الشـــذى ٠

أكاد أسمعك تغنى وأنا أراك أمامى ، وصوتك يهمس فى أذنى دائما فيتحبب جسدى من لمس صوتك وأذوب فى الرعشة ولا أدرى بنفسى وأنا أسمعك :

ـ أحبك يا عائشـــة ٠

فى تلك اللحظة لا تكون عندى القدرة على الرد عليك فآخذك وأحتويك وأبكى وأشد عليك بقوة كأنما أريدك أن تعود الى الرحم فتقول لى باكيا :

مزقتنى الكلاب يا عائشة ٠

فهل أنت أنت أم أنت الواحد المطروح من نفسه ؟

هذا الواحد المطروح منى ومنك ، فلقد أخذت منك ما لم تأخذه زوجتك ، أخذت منك مجملك ، وتركت لها التفاصـــيل وأعطيتنى برضاء ما قاله دمى دون لسانى ، فذهبت حتى اكتمل الحمل فجاء أحمد ، وعندما قلت لك لم ترد على !!!!

أخذه الغواصون الأرضيون وسبحوا بماء الأزل ودخل وحيدا مدينة المعرفة ومازال يتعلم ، أحس أننى أريد أن أراه فى السكاكرة ، ولكنهم قالوا فى بعثك الثانى ٠ طالت غيبتك يا أحمد ولا أدرى فى أى أرض تكون ٠

كنت يا أحمـــد أريد أن أحكى لك عن الجـــدود الأوائل ، مالا تعرف أنت رغيرك شيئا عنه ، اغترفته لك من غرفة السر ، هل تعرف ابراهيم بن سليمان الحداد ؟؟

أين ذهب ؟؟ لا أحد يعرف .... !!!!

ولكني أقول لك .... سأقوله الآن لعله يصلك .

لما تم خلق السكاكرة واستغرق مالكوا السر فى سراديب السر ، وبعد أن عرف الناس قيمة الموت وقيمة الدفن واطمأن ابراهيم بن سليمان الحداد على الجذور الأولى للسكاكرة ، وكانت السكاكرة أصبح لها ليل ونهار وشمس وقمر وأيام وأسابيع وأشهر وسنوات وروائح وطعم ومذاق وبدأت رائحة التميز التى تزكم الأنوف بتوحشها ، واتفاقها مع بداية الأشياء وطبيعتها بدأت رائحة التميز هذه تتهذب وتدخل فى نسيج القانون الخاص بالسكاكرة كمنظومة خاصة بها ....

هنا أمن ابراهيم بن سليمان الحداد عليها وخاصة أنه أوقف الطوفان الثانى بعد ظهور السكاكرة بيده وجسده ونجت السكاكرة بذلك من الطوفان .

ولكن كنا نراه رغم غيابه الطويل يظهر فجأة أو تأخذنا أقدامنا اليه فنشاهد الخليقة فى ابداعها البكر ، وفى مرة كانت ست الناس تجرى فى الشارع وعادت ومعها شلبية وحنونه والعم حفنى ولم أكن أنا قد جئت بعد ـ ولكننى رأيت كل هذا فى رحلاتى ـ لأنهم وجدوا أنه قد قطع شجرة طولها سبعون ذراعا وجوفها وبنى عليها من الأخشاب بيتا عاليا ، وكان معه زارع القرية وعمك عثمان النجار وصانع الدروع ، وقالوا هذا الرجل أخذ معه بذور كل شيء ، أمطرت الدنيا أربعين ليلة وتفجرت عيون الأرض ، ولكن ذلك كان تحت ستار الليل والضباب وبعيدا عن السكاكرة ، وشملت الأمطار بقعة معينة تأخذ طريقا معينا وركبوا فى السفينة ولم يركب معهم عمك

عثمان النجار ، أما حفنى فهو لم يذهب اليهم فى تلك الليلة وكان معهم رجال لا نعرفهم وسارت السفينة ولانعرف أين ذهبت ؟ ولا أين ذهب هولاء الرجال ؟

ولكنى أعرف يا أحمد ، أن تتالى الأشياء وتتابعها مهما كانت بينها من الفواصل يجعلك تحس أنها تسير فى خط مستقيم ·

وهذا يعطينا يقينا بالاستمرار ، لهذا فان ابداعا أشد تميزا ـ كوجود السكاكرة ـ لابد أن تتبعه فترة راحـة ·· أو تمر من بين أيديهم قرى وأماكن عادية لالزوم لها ، ولما كان هذا يتعارض مع طبيعة هؤلاء الكبار لهذا وجبت الراحة ، وهم فى راحتهم كالأموات ومن رأهم رأهم وهـم فاعلون ، فلا يجب أن يشـــاهدهم أحد من المخلوقات وهم فى الراحة ·

وهم فى راحتهم يدخلون الى سراديب اليوم السابع ويتدفقون عرقا ويغيبون فى الضباب ، وتمضى فترات طويلة من الراحـــة ثم يعودون لاستئناف زراعة القرى أو مهام أخرى جديدة ·

ولأن عمليات البناء مستمرة ومتواصلة ومتفوقة على عمليات الهدم فانك لا تلاحظ تلك الفجوات من الراحة التى بين كل قيــام بابداع جميل ·

هذا ما كنت أريد أن أحكيه لك يا أحمد ولكنك تغيب وأنا التى أشم ريحك من البعيد وأعرف أنك قادم الى ·

أين ذهبت يا أحمد ؟؟

تطل على أنت وزوجتك التى كان الصبر الجميل عليه يجللها وهى تقترب منك ·

أراك دائما أمامى ، صوتك وشما على جلدى ونقشـــا فى جدران البيت، ولكنك غبت عنى كثيرا، لكأنما الغياب احتراقى أسرار الهوى لينتفض الجوى وكأنك باشـــتعال النوى تختبر فى قوتى للجنـون ٠

ماذا تريد منى بالضبط يا أحمد ؟؟

تعبت منك وبك ، ولكنى أحبك ، وأحب تعبك فلا تتغيب عنى ولا تجعل الوحشة تترعرع فى داخلى ٠

أخذت منك صوتك وكلماتك وقوة بيانك وعندما أحادث نفسى لكأنما تتردد أنت فى داخـــلى فأتكلم مع الناس بكلام الناس فعندى لغتـــان ٠

لغة من الدم والحنين ، ومساحة بيضاء فى كل الرسائل ٠

تختفى لغتى هنالك بين هاتيك السطور ٠

وأنتمى للقلب ، أصرخ ٠٠٠ أنا فهمت فكيف لى ؟

و ٠٠٠٠ لغة أحادث كل ذى شأن بشأن أتقيه ٠

وأتقى كشفا لصمتى ٠

وأتقى وجعى ، وأكتب نابلاد حديثها ٠

وأقول هذى آخر الأقوال فانتظرى رسائلنا معا ٠

ولكن طالت غيبتك يا أحمد ، والسكاكرة تنتظر رسائلنا معا ، وربما ولدنا أحمد ينتظر رسائلنا يا أحمد ٠

لا أعرف فأنا مكلفة بتوصيل الرســـائل اليك · ومنك والعم حفنى لا يقول ولكنه ينهد وفى كثير من الأحيان يقابلنى ويصرخ : ولكنه سيعود ·

ولا أعرف من يقصد هل أنت أم ولدنا أحمد يا أحمد ؟

وولدنا رسالة من هذه الرســائل ولكن العم حفنى لا يقول لى شيئا عن هذا الموضوع ؟

يا أحمد الكلمات محبوسة طيور خاصمها الغناء ، وأنا مجنونة بك وبالغناء وبالبكاء وخائفة جـوفا مرتفعا ··· ، وأحس روحى كالعشبة قدام المنجل ····

وأعرف أن الخوف يمد مخالبه فى ····

وأراك مساحة ضوء تغمرنى يعطينى ظهره ·

فأعشى بالضوء المنعكس من الحائط ····

أحرقنى بنار قربك ولا تبتعد فأنا أحتاجك يا احمد ·

آء ···· آه يا أحمـــد ·

مسحت عائشـــة الخياطة دموعهـــا ونهنهت بالبكاء فهدلت الحمامات وزقزقت العصافير ، وصدحت الزرازير والبلابل بالشدو الجميل ·

وتلاعب الهواء بجريد النخل فطار غراب بعيدا ·

وسار حمار الى خارج البلدة يتبعه كلب ،

صمتت الوحشـــة

فانطلقت مباهج التذكر ، وشخصت عائشة تتشرب بجسدها
وأذنيها حديث البلاد فعادت اللغة الثانية ، ولكنها رأت ففرحت ٠

رأت رأت فـ٠٠٠٠ـــفـــر حـــت فرحت ٠

(١٤)

سار الرمح فى شوارع السكاكرة مسدود النفس مصدوما ، فى داخله شيىء مكسور ، ورغم خروجه الى الغيط لم يأخذ البهائم معه ، وكأنه قال لنفسه : بلا قرف وصار يقابل نفسه فى الشوارع التى كان يسير فيها قبل ذلك ، ولذلك تعجب من أمره عندما ناداه الصوت ، فتوقف عن السير ٠

ـ يا رمـــح

التفت فوجد العم حفنى أمامه تلا من المجهول يقف فى وجهه ويسد الشارع بجرمه فذهب اليه قائلا : السلام عليكم

ـ مالك يا رمح ؟ انت مكسور يا ولد ؟

ـ أنت تعرف الحال

ـ قلنا لك القوة ليست فى الافتراء على الناس

ـ ضاعت أرضى وضعت يا عم حفنى

ـ غدا تتزوجهـــا

ـ لا ·· يا عم حفنى ·· حبيبة لا ينفع معها زواج أو معيشة

ـ اتفقنا وانتهى الأمر

مال الرمح بسرعة وقبل يد العم حفنى ، وتأمل كلامه ، وكان لا يعرف هل العم حفنى سمعه وهو يقول حبيبة ؟ أم حسبه يتكلم عن واحدة أخرى ؟

ولما تأمل الكلام أحس أن حبيبة مستبعدة من الموضوع تماما فقال فى نفسه :

ـ الحمد لله (وأكمل بصـــوت عالى) البركة فيك يا عم حفنى ·

تنهد العم حفنى وقال : ليس كل شيء له شكل الفرح يدل على الفرح أو حتى يفرح ، وقد يكون له شكل الفرح ولكنه الحزن ، وقد يكون غير ذلك تماما ·

ـ لا أفهم يا عم حفنى

ـ قلنا لك ليست لك أرض عندنا ·

ـ وضاعت الأرض وبيت أبى ·

ـ قلنا لك لن تموت على كيفك ·

ـ المثل واجب فى هذه الحالة

ـ دخلت دار حبيبة ، وحبيبة ليست سهلة كما تظن وليست وحيدة وهى فى حماية دائمة ·

ـ رأيت ما فيه الكفاية وزيادة ، وأريد الخلاص ·

ـ عندما يقابلك سيقول لك كل شىء ويحل الموضوع المحلول أصلا ، ثم لا تستعجلنى بالأسئلة فالحمد لله الذى أبعدك عن السرقة وهداك ، ولكنك كنت تحس بقوتك ٠

فوقعت فى حبيبة الضعيفة لتعيدك الى عقلك وتجعلك عبدا لهـــا ٠

قال الرمح : الحب يا عم حفنى والجهل ولم أكن أعرف ٠

قال : لا تغتر بقوتك ولا تأخذ الناس بخارجها ، فقد يكون هناك من يكاد أن يلمس الأرض من خفته وهو فى الحقيقة أثقل من حجرى الرحى ٠

الخفة والثقل ليستا بالوزن ولكن بالقدر ، وأعلم أنك قد تكون كما تحب ولكن ليس تماما ٠٠ ولكن كما تحب حبيبة تماما ، حتى ولو لم يعجبك ٠

ـ والعمـــل ؟

ـ أطلب منها الخلاص أولا ، ثم فكر فيما سأقوله لك ، ولا تبت وحدك ، واذا لم تجد صاحبا فنم فى المسجد ، ولا يأخذك الهواء بعيدا فتمرق فيه احتراقا أو غرقا ، لا تمرق فى هواء الغيطان ، ولا تستسلم للنعاس بجوار ماء ، النزول الى هناك أسهل مما يتصوره البعض ، ولكن أين القدرة على الاحتمال ٠

أمسك الرمح رأسه وصرخ : لا أفهم لا أفهم ٠

فلم يرد عليه أحد ، فنظر أمامه فلم يجد أحدا من الناس ولا العم حفنى فنادى :

– يا عم حفنى ٠

ولكن رجع الصدى عاد اليه قبض الريح ٠

★★★

سار الرمح الى الغيط وكان طريقه بجـــوار الترعة فتذكر (لا تنم بجوار ماء) فسار بعيدا عن الماء وهمس – من ينام بجوار المـاء ؟

ثم أكمل مسيرته ونظر ناحية الغيط فوجد التوتة لها هيئة العم حفنى ، فتوقف عن السير وأدار لها ظهره ودخل حقل الذرة وبال وخرج وسار فى طريقه الذى يريد ، حاول أن يغنى موالا يشد عزمه فى حر الصيف ليدخل على أرض القطن ليطمئن على موعد الجمع ولكن ضاع منه الكلام وخرس اللسان فبصق أمامه مباشرة وقال :

ضاع كل شىء ولكن لن أخرج من المولد بلا حمص ، وكلام العم حفنى لا أفهمه ولكن لن أسكت على حقى ٠

ولكن شيئا ما كان يجوس داخل صدر الرمح ويجعله خائفا ، شىء لا يمكن تحديده جعله غير قادر على المشى أو حتى الوقوف على قدميه ، وأحس أن داخله فراغ وأضلاعه ترتعد لكأنما صار غيره وتساءل وهو يمسح عرقه :

– أين ذهبت قوتك يا رمح ؟ ٠٠٠ آه ٠٠ يا ناس ٠

بحث كثيرا فى جيوبه وفى الفراغ الذى داخـــله فلم يجد شيئا ، وأمام اتساع الحقول المترامية أحس أنه صغير وضعيف فبـــكى ٠

سار عدة خطوات باتجاه الغيط وهو محزون كأنه قطع من كل من يعرف وأصبح غريبا فى بلد غريب وجد نفسه على أول الحوض فى غيط حبيبة فدخله من آخر الأرض وليس من عند التابوت ورأس الغيط كما تعود ٠

وربما سمع شيئا ، وربما كلمات العم حفنى ، هو لا يفهم ولكن هذا ليس معناه أنها لا تعنى شيئا ، العم حفنى عندما يقول فهو يقرأ فى كتاب مفتوح ويرى ويشم ٠

حاول أن يمد يده ويكشف ستار ما يحدث ولكن كل شيء بدا غامضا ومخيفا فقرر الاستمرار فى السير حتى داخل حقل حبيبة وتأمل منظر القطن فوجد بعض اللوزات تتفتح ولكن معظمها أغمض فمه وزم شفتيه كأنه يخاف القول ٠

(١٥)

عقدت الشمس ما بين حاجبيها · وهى تبص بشدة على حقول القطن · وتذكرت أن ميعاد تفتح اللوزات بقطن أبيض قد مضى ، فمدت أياديها وربتت على اللوزات فضحكت وفتحت فمها فبانت أسنانها قطنا أبيض اللون ·

لسعت الشمس قفا الرمح الذى كان يسير على حد الأرض مهموما ، فهى ليست أرضـــه وهو لا يملكها ولا يقدر أن يتركها ويمضى ·

رنت فى أذنه (يا زارع فى غير أرضك يا مربى غير ولدك ياباني فى غير ملكك) تنهد وسار وهو لا يعرف نهاية ما هو فيه من عذابات ، وحبيبة ربطته الى جوارها فلا هو تزوجها ، ولا هى طردته من دارها ؟ وباع أرضـــه كلها وصرف الفلوس كلها فى استرضائها ، وعندما يكون بعيدا عنها ، يتأمل حاله ويندم ويحس بضرورة تركها والعمل عند أي مخلوق آخر فلا هى أظهرت الرضا

ولا اقتربت منه أكثر ، وهو يريد أن يحل مشكلته ويتزوج بدلا من وقف الحال الذى هو فيه ، وعندما بكون واقعا فى حصارها يحس أنه فأر فى مصيدة ٠ لم يكن التفكير مستقيما ولا متعرجا ولا متشابكا ولكنه كان كتلة من التعقيدات ، والتقاطعات والانقلابات التى يصعب السير فيها أو الابتعاد عنها ، ولكنها على كل حال تصور حالته بالضبط ، ولهذا لم يكن يعرض مشـــكلته على الكثيرين الا عندما يفيض به الكيل والا فهو سارح فى ملكوت الله ٠

وعندما وصل فى سيره الى التابوت وجد عمك عثمان النجار على رأس الغيط يصلح الكبير والصغير (ترسا التابوت الخشبيين) وهو يمسح عرقه فى كم جلبابه ٠

نادى عمك عثمان : يا رمح ٠

كان الرمح يسمعه ويعرف أنه سينادى عليه ولكنه كان يريد أن يستهبل فلم يرد عليه وواصل سيره حتى وصل اليه ٠

ـ خير يا عم عثمان ؟

ـ اشرب يا أخى ٠

تناول الرمح القلة من بين أفرع التوتة وأعطاها لعمك عثمان الذى أخذ يشرب والماء يتدلدق من جوانب القلة على صدره فقال الرمح :

ـ حرام ٠٠٠٠ حرام ٠

قال عمك عثمان النجار : يا أخى كنت حافظ على أرضك ٠
زعق الرمح : أعوذ بالله من غضب الله ٠

جلس عمك عثمان وخلع بلغته وأخذ يلعب فى أصابع قدميه وترك الرمح يعيد ويزيد ثم نظر اليه قائلا :

ـ اقعد يا رمح ٠

جلس الرمح كأنما كان ينتظر من يقول له أقعد ٠

ـ نعم يا عم عثمان ؟ كفاية تقطيم ٠

ـ مالك يا رمح ؟ بضحك معاك ٠

انفجر الرمح بالبكاء وأخذ ينهنه فتركه عمك عثمان يبكى على كيفه وخلع طاقيته وعمامته ووضعهما تحت رأسه ونام . وعندما سكت البكاء المتقطع من الرمح قال له الرمح : الحل ؟

ـ الحل فى يد ربنا

ـ ....

ـ لك خمسة قراريط

هذا ما قاله عمك عثمان وهو يغرس عينيه فى السماء ولا ينظر الى الرمح ويتأمل أوراق التوته ، فقال الرمح :

ـ كـــان

ـ نعم ٠٠٠٠ من يخدم حبيبة الآن

لم يرد الرمح فأكمل عثمان :

حبيبة عندها فدان أرض وأنت بعت أرضك عليها ، وانت عارف البيت والغيط والبير وغطاه ، وأنت لا بيت ولا غيط ولا بير ولا غطاه ٠

صاح الرمح : أنا أرجل واحد في الدنيا

قال عمك عثمان : تتزوج حبيبة ؟

سكت الرمح ولم يرد ثم قال متذكرا : تتركني أولا

نهض عمك عثمان النجار ولبس بلغته وطاقيته وأمسك عمامته فى يده وقال :

ـ سأكون عندكم بعد صلاة العشاء ٠

★★★

جلس عمك عثمان النجار وعائشة الخياطة أمام حبيبة وكان الرمح يجلس بعيدا عنهم صامتا يتأمل طيات ملابسه وينظر فى حجره باحثا عن بخته ٠

قال عثمان النجار : يا حبيبة نحن نريد راحة الرمح ، هو خادمك ، وباع أرضه عليك وأصبح لا أرض ولا بيت ولا مال ٠

قالت حبيبة : دخل بيتى دون ارادتى ، واستولى على الأرض ولن يخرج دون ارادتى ٠

قالت عائشة : اخلعيه من أساور يديك يا حبيبة ، أنت لا تحتاجينه فى بيتك وسيزرع لك الأرض من الخارج وهو فى بيت غير البيت ، اتركيه يذهب الى حاله ويتزوج ٠

قالت حبيبة : يذهب كما يريد ٠

قالت عائشة : أنت تعرفين هو مقيد للعمل عندك ٠

قالت حبيبة : قيدنى هو بضعفى وعدم وجود رجل معى ليحمينى ٠

قال عثمان : وهل تحتاجين الى حماية ؟

قالت حبيبة : لن أستغنى عنه أبدا ٠٠٠ هذه مصلحتى وأنا أدرى بها ، وسيظل عندى حتى آذن له بالرحيل أو نرحل ٠

قال عثمان : سآخذه معي يا حبيبة وافعلى ما تريدين ٠

قالت حبيبة : لن تأخذه منى أبدا ٠

قال عثمان : تزوجيه

قالت حبيبة : موافقة (وقهقهت)

قامت عائشة وسط دهشتها ودخلت الى وسط الدار وأحضرت حبلا وجريدة نخل خضراء وسكينا ولفت الحبل على الجريدة ، ثم شقت الجريدة الى نصفين دون أن تقطع الحبل ، ثم وقفت بين حبيبة وبين الرمح وقالت :

ـ حبيبة اخلعيه من أساور يديك وكل واحد يروح لحاله (ثم سحبت الجريدة فانفلقت الى نصفين كل نصف فى اتجاه) ٠

فى نفس اللحظة شهقت حبيبة بينما نفض الرمح رأسه كأنه يفيق من كابوس ووقف وقال : السلام عليكم ٠

أمسكه عثمان النجار من جلبابه قائلا : اقعد يا رمح ٠

دخلت حبيبة وعائشة الى داخل الدار وحبيبة تبكى ثم عادتا وقالت عائشة :

ـ حبيبه وافقت على زواجكما على شرط أن تظل فى البيت والغيط كما أنت ٠

قال الرمح : أفكر ٠٠٠ وبشروطى ألا تخرج من البيت وأنا حر التصرف فى كل شيء ٠

قالت حبيبة بذلة ومسكنة :

ـ حاضر يا رمح أوامرك ، ولكن أتركنى تسعة أيام أدبر فيها حالى ولا تدخل على حتى شمس اليوم التاسع ثم تعال ٠

قام الرمــح خارجا بينما بقيت عائشــة وعثمان النجار مع حبيبة ، وكانت صــامتة والدمع يتســاقط من عينيها بينما عثمان يتكلم بصوت هامس ويعد على أصــابعه ، وعائشة شاخصــة الى الجدران ٠

قالت حبيبة : طبعــا ما حدث ليس على مزاج أحد منــكم ، ولكنى أريد أن أستريح وأنا أعرف أنه يحبنى وأنا أخاف منه ومن الناس ، وكلما أردت أن أكلمه أتوه فى الكلام ، وأجد أمامى من يحضرون من وراء الجدران ومن باطن الأرض ومن سقف البيت ، وتتراءى لى عائشة وأسمع نقر درابكها فى أذنى حتى أجن فأنام وأترك الرمح فيغيب عن بالى ٠

قالت عائشة : فعلا يا حبيبة ٠٠٠ ؟ تتزوجين الرمح ؟

قالت حبيبة : أعذرينى يا عائشة ٠

صمتت عائشة ٠

فى منتصف الليل تسلل عثمان النجار خارجا من بيت حبيبة وبقيت عائشــة هيــأة (هيئة) بينما عائشة فى دارهــا تستعد لاستقبال زوارها وتطمئن على ولدها ٠

بعد أيام قلائل قابل الرمح عمك عثمان النجار وعائشة فقالت عائشــة :

ـ أين بت هذه الأيام يا رمــح ؟

ـ كل ليلة أبيت فى الغيط ٠

ـ أسمع كلام عمك حفنى ولا تبت وحيدا (وكان قلب عائشة يرتجف) ٠

حاول الرمح أن يظهر شجاعة ما أمام عائشة رغـم ارتجاف قلبه فقال :

– لا تخافى على فأنا كل ليلة مع الكوابيس ٠

ولكن الرمح كان مرتبكا ومتعجبا من معرفة عائشة لما تم بينه وبين العـم حفنى ٠

قال عثمان النجار : تعالى معى ، ووضع يده على كتف الرمح بينما استمرت عائشة فى طريقها ٠

★★★

كانت حبيبة جالسة كما كانت جالسة فى الليلة الأولى بنفس التمام والكمال كأنها لم تتحـرك من مكانها ، دخلت عائشـة فى هيأتها التى تركتها عند حبيبة وبدأت تتحرك وبدأت حبيبة تحس بما حولها ٠

★★★

قال الرمح لعمك عثمان : طوال الليل يغلبنى النوم فأرى كوابيس وناس برؤوس كرأس أبى الحصين أو الكلب الأجرب ويمشى كأى رجل على قدمين ويحاول أن يأكل رقبتى فأقوم من النوم مفزوعا وأغير مكان نومى ٠

قال عثمان : يا أخى لا تنام لوحدك أو فى أى مكان ٠

تأمل الرمح عمك عثمان وهو جالس أمامه على المصطبة أمام دار ست الناس وقال فى نفسه : والله جوازة عال العال ويصبح عثمان النجار عم السكاكرة صاحبى ٠

قال الرمح : لم يبق لى يا عم عثمان الا صباح واحد وبالليل أكون عند حبيبة بوضع مختلف ، وأحس بالفرح وأكون أخيرا مثل باقى الرجال ، يا عم عثمان عادت الى رجولتى من ساعة أن أعتقتنى من عندها ، وأنا حاسس أننى أفوت فى الحديد ، ولكن أخاف منها فى كل مرة تعاملنى بطريقة مختلفة · ولها أحـوال ·

قال عثمان : اترك كل شيء لوقته سأذهب اليها فى الليـلة الجاية وانتظرك هناك ·

★★★

كان الصباح التاسع قد جاء ، ومر وجاء الليل وانتظر عمك عثمان وعائشة فى بيت حبيبة حضور الرمح ، ولكنه لم يحضر ، وكانت حبيبة لا ترد عليهم كأنها غائبة ·

دقت ست الناس الباب عليهم فقالت حبيبة : ليس هو ·

فتحت عائشة الباب فضحكت ست الناس عاليـا وأخذت عائشة من يدها وسارت بها خارج البيت ، وعمك عثمان أحس أن ست الناس وراءها أخبار فانتظر ·

تعب عمك عثمان من الانتظار فوقف أمام البيت ·

خرج صباح جديد لليوم العاشر وهو مدهون بزعيق الناس وهرجهم ووقف شكرى أمام عمك عثمان : صـباح الخير يا عـم عثمان ، الولد مات ·

قال عثمان : الولد ؟ مين ؟

– الرمح ··· البقية فى حياتك غرق فى الرشاح ·

جاء ضحك حبيبة من الداخل بينما لم يتكلم عمك عثمان وجرى خلق كثير من نهر الشارع قال عباس وهو لا ينظر الى أحد : المراد والمقسوم ·

وقال سعيد المتوكل : ولد حمار نايم جنب الرشاح وانقلب بالليل ووقع فى الرشاح ولم يحس بالماء ·

قال عثمان : اليوم كانت صباحيته وكان فرحه الليلة الماضية ·

قال عباس : فعلا صباحيته اليوم تزوج ليلة أمس تحت الماء ·

نزل الصمت على الناس ولم تنزل الدموع من عين أحد بينما استمرت السكاكرة فى الابتسام ·

عادت عائشة ودخلت وهى تمسك بيد عمك عثمان النجار الى بيت حبيبة ، وكانت حبيبة صغيرة وجميلة جدا ، وعذبة وخجلانة وتضحك ودموعها على وجهها ·

قالت عائشة : مبروك ··· أنت دائما تضحكين علينا ·

قالت حبيبة : كل واحد وقوته يا عائشة ·

فأمسكت عائشة بيد عمك عثمان بقوة وشدت عليها وصمتتا ·

فى هذه اللحظة دخلت شلبية فقالت لها حبيبة : اخرجى من بيتى ·

قالت شلبية : بيتك هناك به جيفة الرمــح ، روحى له الآن ، هذا بيتى ·

قالت عائشة : أنت معى يا خالة شلبية ·

لم ترد شلبية فأحست عائشة أن هناك مياه كثيرة مستمرة فى الجريان فى شوارع السكاكرة وأن هذا حدث قبل أن يأخذ هذا الأمر تمامه الأول فتركت حنكش وسعيد وشكرى يحاولون دس أنوفهم فى هذا الموضوع وشلبية تلقى بالألغاز وحبيبة ترد عليها فخرجت عائشة وهى تمسك بيد عثمان النجار بخوف ومهانة ، وسار فى شوارع السكاكرة فقالت عائشة :

ــ الطوفان يا عم عثمان ·

قال عثمان : لا أعرف ·

فزعت عائشة وتأملته وكانت هيأته تكبر وتهرم ، فأحست أن السكاكرة تتغير ·

قالت عائشة : اذا كانت تريــده لماذا لم تتزوجه من أول الحكاية ، طالما أنه لن يأتى الطوفان ، يعنى لابد من زواجهما هناك ؟ هل هذا هو اتفاقها معهم ؟

قال عثمان : لا أعرف ··· حبيبة عندنا غيرها عندهم وأنت تعرفين وهى ليست أول واحدة لها حياتين وربما يعيش أولادهم ، وربما هذه طريقة حتى لا يحدث الطوفان ·

قالت عائشة : ماذا تقصد يا عم عثمان ؟

قال عثمان : غدا يعتدل الميزان ، ومادام الرمح قد نزل الى هنـاك فلابد من صعود أحد من هناك الى هنا ، أبشرى خيرا المكان هناك محدود سيأتى لك حالا وسيظل فوق سطح الأرض ·

بهتت عائشة وأحست بقرب رحيلها ورأت الأقمار والشموس تنادى عليها فدمعت عيناها وقالت : لم أكن أعرف أنه أنت الأكثر منى قوة ، عملتها يا عم عثمان ؟

ثم مالت عليه وقبلته فقال لها : أمامك الرسـائل السـبع الأخيرة أبلغيها لهم ومال عليها وقبلها ، وسـار كل فى اتجاه غير الآخر ، وصار الأمر الى صاحبه ·

ذهب كل الى حال سبيله ·

ونزل ظلام كثيف ·



(١٦)

لكأنــه هو ٠

أو أنــه هو ٠

أو أنها القيثارة فى تملكها لقلبى ٠

الوقت ينهض من خلايا القلب يزرع صوته فى راحتى، يقطف الضحكات يمنحنى ملامحه ويمضى يأبى على النســيان ، يحضر من خلاياى ، يطرح نفسه منى فيبقى فى حشاى هو ـ وأنا أراه الآن بين يدى يضحك ٠

هل كان هو ؟

أم أنه وجعى وشكى وانهمارى فى يدين من الرماد ـ الوقت ـ ليطلع النعناع من جسدى لأحمد ، كم كنت أرغب أن يكون معى على هذا الفراش يضمنى أخلو اليــه ٠

يضمنى ويمد فى جسدى ابنتــه ٠

من يأخذ الصوت الجميل بزهره ؟

من ينشر اللحن الزمان ؟ لتظل عائشة لهم ، وأظل صوتـا بينهم لحنا يفتق ما استقر بقلبهم فيفتشون جيوبهم عن لحن مبتكر القرى فيفرحون ، وتطير فرحتهم حماما فى نخيل خيالهم ٠

هل تأتى جنبى ؟

مثلما أخرجتنى من بين ضلعيك الهوينة وارتميت على الحياة، والبلاد على يديك هى السكاكرة استضاءت ، علقت وجه النخيل على محياك النبيل ياليل يا عين ٠

طقطقت من زهرة الصبار أغنية ــ ولد ــ وكنت أريدها بنتا تغنى أم ترى الأيام تحزن ؟

وأنا أود بأن أكون وأن كون ، كلى امتداد الصوت فى صوت البنات سكر نبات ، خذ من رمادى حفنة واسكبها فى ماء بسكر فى الفرح والناس تهرج وا سق البنات ، فهل ترانى فى غناء النـاس عائشة تعيش هى الحياة حتى تغنى فى الصباح وفى المساء ٠

هل ترسل البجعات أحلى الأغنيات قبل مصرعها وترحل ؟

هل صرت لحنا صاخبا أقوى من الأشياء مفتونا بأرواح الغناء مسكونا بفتنة هذه الأشياء ؟

أم أننى أهذى وأحلم ؟

يا أحمد المطروح منى واحدا فردا تكامل ٠

يا أحمد الموجود فى ·

يا أحمد الآمل المرجى والمصير المنتظر لك عائشة ·

فاحضن بقلبك ما تبقى من ترابك ، ما تبقى فى من جسد وغن
قل لى ولو (أهواك) أنت الآن منى ·

هل قلت شيئا غير ما يهوى فؤادك ، غير ما تهوى ؟

هل تسمع النقر الجميل على الدرابك ؟ ، هل تسمع الصوت
الذى يتلو وينشـــد ؟

هل كنت أحيا فى الحياة على انتظارك ؟

وأنا خروج عن قوانين الحياة ، وأنا الحياة وأنت باعثها
تمهل ··

انى أذوب بآخر القطــرات ، أشد الزيت من قعر الانــاء ،
وأشـــتعل ·

ها هموا حضروا وجاءوا يأخذونى ···· وأنا أريدك ·

سأظل بين يديك آه ما الذى يهوى ويصعد ؟؟؟

آه يا امتداد الأولين ويا رسالات السكاكرة العجيبة ، من
علمك ؟

من علمك أن يصبح الصمت البليغ مبالغا فى القول ؟

هل عينيــك ؟ أم لمس الأصــابع فى توترهــا مرارا يخلقك
ـ نارا بقلبى ـ يا انهمارى ها ـ حنانك طالع من قلب وجهك ·

هذه الأشـيـاء ترحل فى نهايتها الأخيرة ترتمى فوق الجدار تقلب الدنيا وتسكن فى السديم لكأنما الدنيا انتظار فى انتظار ٠

وأنا المساء وأنت واجهة النهار ٠

من أين تدخلنا الحياة ؟

من أين يدخلنا النهار ؟ الموت أو حتى الحياة المنتهى الأمل الضحوك اليأس ٠٠ آه ٠

من أين ندخل ؟ من هنا حد اكتمال الموت أو صوت الزوال ؟

أنا أرتحـل ٠٠٠ قبـلنى بعينيى ٠٠٠ انه يوم الفـراق ، وأسمعنى نقر درابك الدنيا ـ عائشة وأحمد ـ ٠

انظر معى الحلم الجميل أو انتظر ٠٠٠ الآن قادمة اليك ٠

(١٧)

لم يكن حقيقة لكنه لم يكن وهما أيضا ولكنه كان .

★★★

أحس بها وهى تتحول أمام عينيه داخل ملابسها الى هشيم وتراب ، وأخذته الرجفة فارتجف وأحس .

أحس بأن حيطان الدار تتنفس وتزوم وتبكى فارتجف وارتعش .

ومرت من أمام عينيه العصافير والزرازير وباقى الطيور الغردة والهادلة من الحمام واليمام والوراور والبلابل فلم يعدها ولكن رأها تتساقط على جسد عائشة ، ولا يعرف من أين تأتى ؟ ولا الى أين تروح ؟

تضع الطيور مناقيرها فى فم عائشة فتتخم رقاب الطيور فتمشى الطيور متبخترة على الأرض ثم تعود مرة أخرى وتمر من

تحت ملابسها حتى همدت الطيور ، وكانت تخرج من أكمام الجلباب ومن فتحة الرقبة هكذا هكذا أسراب وأسراب ، وعائشة تبتسم رغم ما هى فيه ، ولا تهش الطيور والجسد ـ عائشة ـ يتضاءل داخل الملابس حتى همدت عائشة وعلى الأرض ملابسها استقرت ٠

هجت العصافير عاصفة من القيامة وانطلقت باتجاه الشرق وتبعتها موجات فى كل الاتجاهات والى كل الاتجاهات وكانت كل الطيور تدخل الجدران انتحارا ، فتمتصها الجدران وربما تفرزها من الجهات الأخرى ٠

جمع ترابها فى قماشة بيضـاء ولفها بعناية ووضـعها بين يديه ٠٠٠ وبكى ٠

اخترقت شلبية عليه الدار ومرقت من الباب المقفـل تتبعها القطة السوداء ٠

قالت شلبية : عائشة فى الفرح ٠

فأشار لها برأسه ٠

كانت عينـا شـلبية لا تنظران فلم تبصر الصرة ولا هدوم عائشة ، وكانت عيناها تشخصان الى الأعلى ٠

وقفت القطة أمام هدوم عائشة ثم لمتها ودخلت بها الى الغرفة الداخليـة ٠

خرجت شلبية فأحس حركة تحت الأرض فلم يتزحزح من مكانـه ٠

رأى فيما يرى اليقظان والمنتبه أن عائشة يدخل عليه البيت وتأخذ الدرابك تحت ابطها وتخرج من الباب فهتف في لجة خوفه : عائشـــة ٠

جاءه صوت لم يعرفه : اذهب الى الفرح ٠

لم يصدق أذنيه فأعاد السؤال عن المكان ولكن الاجابة كان بابها قد أقفـــل ٠

نظر بين يديه الى الصرة وما فيها وقال : هنـا ترقد عائشة وانها ذاهبة الى الامتداد ، من يصدق ؟

تأمل أول مرة أتى اليها وجهله الذى أوقـع منه السـؤال والاجابة ، وعدم معرفته بها ولا بغنائها الذى ملك عليه زمام أمره ان كان أمام غناء عائشة يبقى زمام ، وبكائه بين يديها انهمارا على جسد الكشف والمعرفة وصراخـه :

ـ مزقتنى الكلاب يا عائشة ٠

واعتراضـــه عليها وعلى حكاية رقبتها وفاطمة السبـــبعة ، ودروسها له والتى أوضحت له أنه أول الرسائل وآخرها ، وما بقى محصور بينه وبين العم حفنى ، ونصائحها له وتنبؤتها معه ٠

لم يكن يدور فى خـلده مجـرد اعتراض أو حتى سـؤال : لماذا أنـا ؟

الا فيما بعد ، لكأنما رضى ساعتها بما كان أو أنه جاء ليكون، وقال :

ـ ما بين الماء والماء ماء ۰۰۰۰ ، وما بين النقطة والنقطة اتساع ۰۰۰ ، وما بين الخوف والشك ۰۰۰ ارتياب ، وما بين الخوف والضيق ضيق فمن أين تأتى يا موت ؟؟

هنا سمع صوتا أربكه وارتك جدران البيت فأحس بجسده يعرق ۰

ـ انها رحلة من هنا الى الدار الأخرة ۰

تذكر ساعتها يوم أن كانت عائشة قد قالت له ذلك فخجل من نفسه وقال :

ـ النسيان هو الانســان ۰

آه ۰۰۰۰ يا عائشة كنت أريدك دائما ملكى ، ولست أدرى ماذا أكون بدونك ، هكذا ترحلين يا عائشة غيدا لم يأت وزغرودة بلا صوت ، تتركين مكانك للوحشة والصمت ۰

انطلق الصوت للمرة الثانية : امتدادها بين يديك ، وستمتد رغما عنك حتى لو ألقيت الصرة في مكان سحيق ۰

نظر الى الصرة التى بين يديه وأحس بها كأنما الحياة تنبض فيها وتذكر ما أوصته به عائشة وخجل من نفسه فقال : ربما ضعفى من طول الموقف ولكنه شك فى أنه سمع أى صــوت أو حتى أن عائشة كانت موجودة أصلا ، أو أن هذه الصرة بها شىء أصلا وقال : ربما تخيلاتى وأوهامى وحدسى وظنونى ۰

ثم أكمل بصوت عال ۰

ـ اذا كانت عائشـــة معى فمن التى فى الفرح ؟ واذا كانت قد ماتت فأين جثتها ؟ واذا كان غير ذلك فمن الذى أتى بها الى هنا؟

ثم ما معنى أن يكون فى رقبتها سبعة مغنين ؟ وابنة من هذه ؟

ثم هذا الكلام الكثير والمؤكد من حنكش وشـكرى وسعيد المتوكل عن أمهاتها ؟

كان لابد أن يكون هذا كلامى اذا كنت لا أعرف أو لم أر ولكنى رأيت فعائشة أمة بأسرهـا .

كنت سأعتبر هذا وخلافه من التخريف الجميل وقلة العقل ، وسأعتمد على عقلى وحواسى ومنذ متى لم تخدعنى ؟

منذ متى ونحن لا نلوى عنق السؤال ؟

منذ متى ودليل عقلك غالب دليل قلبك أو العكس ؟

منذ متى والحيرة لا تتركك وكأنك تحب الحيرة وحيرة المتعب .

وتذكر الفم حفنى وأحواله مع عائشة فصرخ :

نعم كل شىء معى الآن وعائشة والعم حفنى وشلبية لا خلاف عليهم ولكن كيف تمر شلبية من الباب المقفل امام عينى ؟

وكيف لم تر جلباب عائشة ؟

وكيف خرجت عائشة الى الفرح وهى بين يدى فى هذه الصرة ؟

وأين ذهبت القطة التى هى روح أبيها بعد أن لت هدومها ؟

ثم أين ولدى أحمد ؟

كانت هياته تتغير فقال : اذا كان كل هذا صحيح فلماذا لا أصدق الباقى ؟

نتريده في الهواء فأحس بافتقاده عائشة فبكي ونظر في حجره فرأى الصرة فازداد بكاءا وصرخ في لوعة : سآجن والله يا عائشة .

خرجت القطة من الحجرة الداخلية وواصلت سيرها وهي تنظر اليه في عتاب شديد حتى وصلت الى الباب المقفل ثم نظرت اليـــه ومرقت من خلاله الى الخارج .

رأى ذلك آلاف المرات ولكنه زعق : ماذا أفعل ؟ هل أجن من وجعي ؟
هل عيناى تتآمران ضدى ؟ هل ما أنا فيه ابتلاء ؟ أنا أعرف أنه يقين فلماذا طوفان الشك ؟

للمرة الثالثة انطلق الصوت : هذه آخر مرة نلومك ونرشدك .
صمت الصوت فسمع صوت عائشة في لقائهم الأول :

(ارحمني ما بقى لنا الا أنت ، سيوصيك العم حفني وسيعلمك حتى تظن أنه لا معلم الا هو ، ولكن أنا أبلغك آخر الرسائل والعم حفني أولها وما قبـل ذلك تدريب وما بعده تمـام الكمال وبداية الاجتهاد للوصول بالعقل الى السمو والتخيل المكتمل فلا ايمـــان الا بالقدرة على التخيل والتصور ، وأنا آخر الاكتمال الأول وكل يسعى في طريقه وكل على قدر الزيت فيه يضـــاء ، فلا تسفه أحدا منهم ، فكل في داخل نفسه سلطان ، فلا تكن جملا أرعن فغدا تثقل الحمولات ظهرك ، وتكتوى بنار المعرفة والحكمة قبل الآوان ويثبت وجهك وملامحك ما بين الثلاثين والأربعين ، ويمتـــد بك الأجل كارها ، فارحم الناس من فحش قولك وتحمـــل وتجمـــل بالصبر والعفو حتى يحين الحين .

ـ هل الحق ما تقولين .

ـ ليس كل الحق يقـال .

- مزقتني الكلاب يا عائشة ، مزقتني الكلاب) .

★★★

يبكي وتأمل حاله وما هو فيه وكيف يأتي صوت عائشة اليه هكذا وكذلك صوته الآتي من أراضيه البعيدة ، وتأكد أن ما يسري حقيقة فقال داخل ثوب الندم والتسليم :

- مخطيء أنا ومسيء .

قال الصوت : هذه آخر الأقوال ولن ترد على أوهامك وتساؤلاتك ، فافعل ما أمرت به .

★★★

لم يكن يدرى أن الميــــاه الجارية الآن فى المصـــارف والترع تتجدد ، وأن هناك خلفات وفسائل تخرج من تحت الأرض بجوار الانسان والحيوان ، فأحس فى نفسه بدبيب يسرى فى عروقه وبين عظامه وأن آلاف من السنوات تمر من تحت بيت عائشة وعلى جدران البيت أمام عينه وهو يرى ويسمع ما حدث وما سيحدث .

كانت عائشة معه أينما سار وتقشر حوابكها يفتح الأزهار ويرقص شماريخ البلح فى النخيل ، أحس أن أعباء كثيرة ترقد فوق كاهله ، وها هو وجهها أمام وجه السكاكرة متربعا بامتداد الجدران فأيهما عائشة وأيهما السكاكرة ؟ انه يغوص الآن فيهما ممسكا بين يديه بخيوط كثيرة كتأملها وقال : - ماذا أنا فاعل الآن ؟

أحس أن أقدامه لا تقوى على حمله وأن الحمولات كثيرة وثقيلة فتنهد ودمعت عيناه · آه ·· يا عائشة ، وحيد أنا في صحراء الناس ودائما نغما منفردا ·

وأنا وأنت لا خلاص لنا الا فيما نقوم به من أدوار مرتبطـــة بخيوط في أيدى الأســـلاف الذين يحكمون مســيرة السكاكرة ، آه يا عائشة ····· آه ·

أسئلة كثيرة عرفت الآن اجابتها ولكنــه شــغف الطامح الى الأكثر بالشك والاحتمال لركوب متن الخيال لكأنها الحقيقة والاجابة عليها نوع من الكذب ، وربما تكون الاجابة أمامنا ولكن نهملها لأنها لا تعطينا ما نريد حتى ولو كان خطأ ·

همى ثقيـــل ولا ألقى الا العنت ومعـــرض أنـــا للكلاب ، وأنت سلوتى ·

★★★

تأمل كيف لم يسقط جدار بين عائشة وزوجته ، وكيف لهذا الالتأم من الالتأم والتوحد الغريب ؟ وكيف وهو مع أحدهما لا يذكر الأخـــرى ؟

وتذكر ولده أحمد فرآه أمام عينيه شاخصـا اليه ، انه هو هو وليس ولده وهو نفسـه هل يمكن لهذه الصـــورة أن تكون الأصل بكل هذه الدقة ؟

لكأنها هو واحد مطروح من نفسه استنساخا خالصا من الأصل أو كأنه رد آلاف السنين · جاء لكأنه نبع من الأرض متصـــلا بمـاء

الأزل ، يخلع أقدامه من أرض عائشة الى أرض عائشة كأنه جذور ممتدة تحت الأرض وجاء أوان خروجها ·

ابتسم له ثم أعطاه ظهره وأخذ يتراجع مقتربا منـــه وهو فى ذهول الموقف ينتظر ويتأمل ، وكان لا يدرى أهو الذى يقترب ام هو الذى يقترب ؟

كل ما استطاعه أنه وضع الصرة على الأرض وفرد ذراعيه الى آخرهما وانتظر الى أن اقترب وتلامسا ثم التصقا ثم تداخلا وصارا شيئا واحدا ، فعطس وأحس كأن شيئا خرج منه وحلق فى سقف الغـــرفة ثم دلف الشىء الى البيت وســـقط على الصرة فانتفضت فصار هو ·

مد يده وتنـاول الصرة وقد زالت شكوكه والأسئلة المرهقـة الجبانة من صدره فأحس كأنه صحا من نومه العميق وسمع كركرة الماء فى الجرار فدخل الى الحجرة الداخليـة فوجـــد الطست والماء الدافىء وكرسى صغير فى وسط الطست ، فاستحم ثلاث مرات وجفف نفسه ولبس ملابسه وخطا بقدمه اليمنى فتبخـــر الماء من الجرار والطست وهب الطست مركونا على الجدار ، وبعد لحظات سمع امتلأت الجرار فتأكد من الامتداد وقال :

– عرفت طريقى ·

حمل الصرة بين يديه ووقف وسط دهشته تماما فى دار عائشه فرأى السكاكرة تقف أمامه فى انتظار مهيب فقال :

أتيت لأمر ما ، لا فكاك لأحدنا من الآخر ·

أنت البداية والنهاية والصراط •

أنت الخليقة فى بطون الأمهــات ، وأنت مطلق آية الوجـــع الجميل الحلو بين جوانحى ، أنت امتلاك الروح من رق السؤال •

أنت انعتاق الكائنات على ضفاف الروح فى وضـــح النهار ، وأنا قليل منك أفعل ما يرف بخاطرك •

هل جاء وقت الوقت تصحو فيه عائشة ونكمل ؟ نكمل ما يدور بخلدها الأزلى ـ خلدك يا سكاكرة ـ من دور يدور بأرضك الحبلى بأبناء صغار ؟

أم أن كل يديك ألقت فى يدى بداية التكوين والمفتاح والقفل المصفد بالأوامر ؟

لا أملك الوقت الذى يعلو على شطآن وقتك ، ولو ملكت الوقت كنت رهنته فى راحتيك طرحته فى خافقيك القبل ثانية فأنا رهين المحبسين ، السكاكرة اللعوب وأنت يا هيات ، يعنى الروح عائشة وأنت هيات هى الدنيا الحياة وأنت عائشة تعيش

من يملك الصبر الجميل ليفتل الحبل الذى لا ينصرم ؟

كونى معى حيثث لك •

كونى امتلاك غواياً ، باطشـــة وقادرة ، أصرخى فى العالمين أنا أجىء •

★★★

سار باتجـــاه باب دار عائشة ولم يكن يدرى هل لديه القدرة على المفارقة ؟ مد يده ليفتح الباب ليخرج الى الشارع فجاءة الصوت : أمرق واخترق دخل فى خشب الباب فوجد نفســـه يجتاز والباب مقفل وهو فى طريقه الى الميعاد ·

بكى وقال : وهو كذلك ·

ولكن الصوت الآخر داخله قال : شكرا يا عائشة شكرا يا أمى يا أمى..

★★★

(١٨)

الفرح هيصة ، ومساحات مفروشة بالزغاريد والعيال ، والألوان تنزل من على ملابس العيال لتزرع أرض الشارع بالبهجة ٠

ومضيفة كبيرة امتلأت بالجلابيب البيضاء بداخلها رجال وشباب وكلام طيب وابتسامات ، ورائحة المعسل حلوة ، والبسمات على الوجوه الفرحة فرح ٠

ظهرت براعة كل أنثى في زهوت بياض عمامة زوجها وجلبابه٠

دار الفرح دار فرح دار عرس ، كوانين في آخر الدار ونساء عرقانة ودخان يصعد عموديا يخترق السقف ويميل ويسحب نفسه ناحية الفتحة الموجودة في السقف ليخرج منها الى عرش السكاكرة حاملا رائحة الطبيخ زاعقا ـ عندنا فرح ـ ٠

نساء تملأ المكان وعروس في جلوتها الأخيرة تنتظر أن يأتي لها عريسها ليأخذها ، النساء والبنات ينتظرن توزيع الشربات

وقرص العروس فى أوراكهـــا حتى تلحقهـــا فى جمعتها ، وتنتظر النساء حضور المغنية لترتفع الزغاريد بعد كتب الكتاب ، وتدخل العروس لتستريح ، وتغيير الفســتان ، ويبدأ العشــاء للناس ثم النسوة ، ثم بعد ذلك تهب عواصف الغناء ويبدأ السهر حتى منتصف الليل ويأخذ العريس عروسه وتحلم النسوة بما سيجرى فتتوددن الى أزواجهن النائم منهم وتحلم ٠

كان هذا هو الترتيب الذى دائما يحدث فى الأفراح ٠

دخل وسط هيصة الفرح وتعجب أن أحدا من الناس لم يلحظه ولكنه تذكر وضحك ٠

كانت فى يده صرة ولم يفكر لحظـــة كيف يتصرف اذا قابله أحد فى الفرح ٠

كان قد وصل فى اختراقاته الى تجمع النساء والبنات حتى وصل الى حجـرة الشربات ، والشربات لم يوزع بعـــد ، فأخـرج الصرة وأذابها فى كوب شربات ونظر ناحية مكان العروس فوجدها ، بنت صغيرة جاءت اليه ومعها درابكها وقالت :

ـ تأخرت على ، أين شرباتى الخصوصى ؟

أعطاها كوب الشربات المذاب فيه خلاصـــة العائشة فشربت وقالت : هكذا قالت ٠

ثم مسحت على درابكها فلاحقتها النداءات (الغناء يا عائشة ٠٠)
رفع رأسه عند سماع النداء فوجد البنت تتشكل وتتحول وتصغير تائهة [illegible]

قبلها بين عينيها وقال لها : الى أين يا عائشة ؟

قالت بعد أن قبلت يده وفمه : الى الناس الى الغنـــاء هذا يومهم ، ونحن بعـــمين ؟ فاحتضنهـــا فقالت وقال ؟ نحن ثانيـــة ورابعة و ٠٠٠٠٠

اتجهت الى النساء وهى تضحك وتنظر حواليها فى النساء ثم اتجهت الى العروسة وربتت على كتفها ونظرت الى الجدران وتأملت وكأنها تأخذ الاذن بالغناء ، أشارت ناحيــة الجدران ونقرت على دوابكها فانهالت النغمات أمواجـــا من العبق والعطــــر ، تجاوبت الجدران مع نقر الدرابك فوصل الصدى الى كل شىء فى السكاكرة ، فاهتزت الجدران طربا ودمعت عيون كثيرة ٠

دوى طلق نارى فانفجرت الزغاريد

ـ العريس وصل ٠

كان هذا هو الاذن ببداية الهيصــة وكان نقر درابكها لايزال يتردد فى كل الاتجاهات ويدخل ويخرج من وفى كل الأشياء ٠

نظرت ناحيــة حجرة الشربات فوجدته ينظـر اليها فتبسمت فغطت بسمات وجههــا الضاحك أرجــاء المكان وتحولت الى ضحكة خافتـــة ٠

قالت النساء : عائشة صغيرة وجميلة كأنها بنت سبعتاشر سـنة ، ولا تمر عليها سنين !!

نظرت اليه وكادت تفر اليه ، وكان يمسح دموعه في القماشة البيضاء ويشم رائحة الهشيم • ورائحة عائشة •

نظرت اليه فخـرج متسللا لايرى ولا يسمع الا نقـر الدرابك والتفت اليها وكانت تبكى وصوت الدرابك مستمر ، ودموعها سيالة وتتساقط على الدرابك فتصمها بالحزن ، وكان النقر له وحده وكان عنيفا وحزينا •

مسحت دموعها وابتسمت فابتسم لها وكأنما المسافة من أول حجرة الشربات الى خارج تجمع النساء هى دهور من الوجع والتردد والمراجعة •

توقف عن المسير ونظر لها فانتظم النقر وغنت له اللحن الأخير •

واندمجت مع لحنها ولم تعد ترى شيئا فى الكون الا هو •

كان قد استأنف السير فى البعيد وبقى أمام عينيها هيأة •

كانت السكاكرة تلاحقـــه فى نقر الدرابك وكان هو يتخطى السكاكرة والغنـــاء ويغوص فى حقول النغـــم والألم من الشجى والشجن •

أحست أن عيناها تخدعانهـــا فنظرت ناحية حجرة الشربات فوجدته مازال واقفا !! •

فابتسمت له فابتسم لها هيأة •

قالت فى سرها : هو يحبنى ورجع من أجلى •

واعتدلت وأخذت تغنى له لحن العودة والكون يقف مشدوها والسكاكرة تتالم بنشوة كعادتها •

كان صـــوتها ينطلق لتردده جـــدران السكاكرة وطيورها والنساء فيجرى الماء فى الترع جديدا رائقا ، بينما هو يواصـــل الطريق ويغريه الصوت ونقر الدرابك بالعودة وهو أيضـــا فى الفرح ويسمعان نقر الدرابك أدعيـة تتنفسها السكاكرة فتبقى فى وجدانها وتظل · صوت عائشـــة يرافق المغادر ويشجى البـاقى ويتماوج بين الجدران ، والكون من نشـــوته أفرز وبكى ورقص وانتشى ·

مازال الصوت يردد : الامتداد ولنا عودة ·

كانت السكاكرة تنظر وترى وتدمع وتنتظر وتمسح على بطن الحامل التى مسحت على ظهر زوجهـــا ليأتى من يدون السكاكرة فالكون مريض بالكوليرا والناس لاتحب الغنـــاء ، ولكن للسكاكرة عادات وهى تنتظر وهم على موعده ·